مجلة
روايات أحلام

طائر الظلام

فراشة المحبة

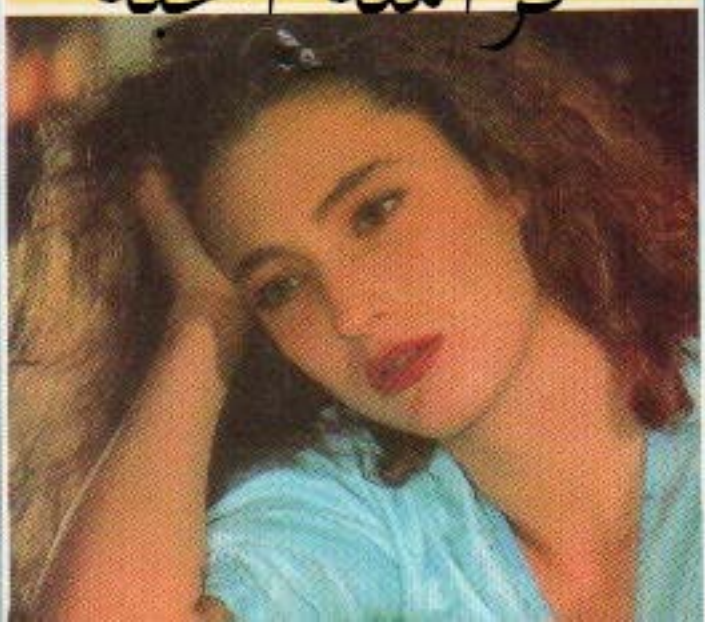

مجلة روايات أحلام

طائر الظلام

... كأنها والعذاب على موعد... كأن آلام الذكريات لم تعد تكفي فأتى اللقاء ليوقظ نيران السنين القديمة.

وكما كان اللقاء الأول، عادت سيليا فالتقت حبيبها القديم في المستشفى، واكتشفت أنه ما زال سيد قلبها الوحيد رغم إصابته بالعمى. لكن برودي بادجر الذي تخلى عنها منذ ست سنوات من أجل امرأة أخرى لم يعد يتذكرها وهو يرفضها الآن بعنف قائلاً لها: لا أريد شفقتك، اخرجي من حياتي إلى الأبد.

إهاناته أغرقت عيني سيليا بالدموع، لكن قلبها قرأ في ظلام عينيه نداء لهفة وحنين، فهل يمكن أن يخدعها قلبها؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل	الامارات ٦د.	مصر ٤ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ر.	المغرب ١٥د.	اليمن
الاردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ف.	تونس ١,٥د.	السودان
الكويت ٥٠٠ف.	السعودية ٧ر.	عمان ٦٠٠ب.	العراق

١ ـ التقينا وسط الدموع

ـ مستعدة سيليا؟

تنهدت سيليا وهي تتوجه إلى الباب لتسمح لليندا كنغ بالدخول. ولينداهذه، فتاة صغيرة جميلة في السابعة عشرة من عمرها، ذهبية الشعر.

قالت سيليا للفتاة عابسة:

ـ ألا تفضلان أنت وجون حقاً الذهاب وحدكما؟ يمكنني الخروج لأتبضع بعد الظهر.. هناك أشياء كثيرة أستطيع...

ردت ليندا تصرف النظر عما تقول:

ـ لا تكوني سخيفة.. أهذا ثوبك؟

قالت ذلك وهي تلتقط ثوب سباحة ملون تاركة الثوب الأسود الآخر على السرير.. فردت سيليا:

ـ بل الأسود..

قاطعتها الفتاة الصغرى تهز أنفها:

ـ قديم الطراز!

ثم لفّت البيكيني بالمنشفة ووضعتهما تحت إبطها متنهدة:

ـ إن جون كما تعلمين يشعر بالراحة عندما تكونين قربه.

عقدت سيليا جبينها حينما فكرت في مريضها، وقد ظهر التفكير جلياً في عينيها الخضراوين.. إنها أكبر من الفتاة الأخرى بسبع

فراشة الحبة
www.liilas.com

سنوات، مع أنها لا تشعر بهذا الفرق خاصة حينما تُلقي عليها ليندا الأوامر بهذه الطريقة! وما كان يبدو عليها الكبر كذلك وشعرها الذهبي الأحمر يلتف حول وجهها المفعم صباً وعزماً وهي مرتدية القميص الأسود الضيق، والتنورة الخضراء والسوداء المنسدلة حول خصرها الرشيق الذي بانت منه ساقاها النحيلتان. قالت بصوت منخفض:

ـ لا أستسيغ هذا الوضع فسأرحل بعد يومين. فقد تعافى وما عاد يحتاج إلى الاعتماد عليّ.

ضحكت ليندا بثقة، ثم قالت مازحة:

ـ إنه لا يعتمد عليك.. بل هو معجب بك، شاكر جميلك. إن معظم الممرضات يتمسكن بفرصة قضاء الظهيرة بكسل قرب بركة السباحة...

وهذا صحيح.. فقضاء الظهيرة دون فعل شيء عدا التشمّس والسباحة هو ما تحتاجه بالضبط.

مع ذلك كانت مترددة في قبول الدعوة:

ـ لكن.. ألن تفضلي وجون أن تكونا معاً منفردين؟

كان أفراد عائلة هاملتون من الأم والأب، إلى الشقيقة الصغرى لطيفين معها في الفترة التي أمضتها معهم كممرضة خاصة لجون بعد خروجه من المستشفى، وذلك قبل ثلاثة أشهر إثر حادثة سيارة خطيرة. لكن، لا بد أن هناك حدوداً لهذا اللطف، والتطفل على موعد جون مع صديقته الحبيبة ليندا هو الحد على ما تعتقد.

ولكن ليندا لم تكن تفكر هكذا.. فقد قالت:

ـ كيف نكون وحدنا وثمة ثلاثون شخصاً آخر.

اتسعت عينا سيليا:

ـ وهل سيكون هناك هذا العدد؟

ـ تقريباً.

ـ إذن.. ربما يجب أن أذهب. فهذه هي المرة الأولى التي يكون فيها جون بين الناس.. ولا أدري كيف سيتصرف حين يرون عرجه.

ـ سيكون على أفضل حال.. حسناً.. لن يستطيع لعب كرة القدم في المنتخب القومي وهو أصلاً لا يلعب. إن عرجاً بسيطاً كهذا لن يؤثر في دراسة الهندسة المعمارية.

ردت سيليا ممازحة:

ـ ولن يؤثر فيك.

كانت تعلم أن الشابين سيعلنان خطوبتهما في عيد ميلاد ليندا الثامن عشر. ضحكت الفتاة:

ـ هذا ما لا يحتاج إلى تعليق.

ضحكت سيليا أيضاً.

ـ يا لتواضعك!

ثم تبعت ليندا إلى السيارة حيث كان جون يجلس نافذ الصبر منتظراً.

قال متأوهاً حين انطلق بالسيارة إلى الطريق الريفية:

ـ كنت سأرسل فرقة للبحث عنكما. لن أفهم أبداً كيف تجد النساء هذه الأحاديث التي تطول وتطول. ترى عما يتحدثن؟

ردت ليندا:

ـ عن الرجال حبيبي.

رد متصنعاً الغيرة:

ـ لعلك تعنين بكلامك هذا صيغة المفرد؟

فراشة المحبة
www.liilas.com

ردت بتكبر:

ـ لن أرضي غرورك!

جلست سيليا تنصت إلى مزاحهما الخالي من الهم، تبتسم لنفسها... ستفتقد أفراد هذه العائلة واحداً واحداً ابتداءاً من كارين الساهمة أبداً، إلى جاك الممازح الدائم، فالوسيم جون، فالواثقة من نفسها ليندا وانتهاءً بإيزابيل الخجولة. كانت الثلاثة أشهر التي أمضتها مع هذه العائلة في منزلهم الكبير أطول مدة تقضيها في تقارب مع أي كان... إن افتقارها إلى علاقة حميمة مع ذويها جعلها تقدّر هذه العائلة المحبة، المحبوبة حق قدرها.

ولكن، سرعان ما سينتهي هذا، فخمسة أيام وترحل للاعتناء بمريض آخر: امرأة عجوز وقعت وكسرت ساقها، أو مريض آخر يحتاج إلى عناية خاصة... إن التورط عاطفياً مصدر خطر في مهنتها لم تستطع قط التغلب عليه.. وتشك في قدرتها على التغلب عليه أبداً.

حين وصلوا إلى منزل آل ريتشاردز كان في بركة السباحة عدة مراهقين يهرجون ويمرحون، وسرعان ما انخرطت سيليا مع هذه المجموعة الضاحكة رغم فارق العمر بينها وبين معظمهم.

شعرت بالسعادة لأن جون لم يظهر أي ارتباك في ارتداء ثوب السباحة، على الرغم من أن جرح ساقيه ما زال يظهر للعيان بشكل سيء، والعرج واضح على إحداهما... ولكنه شاب قادر على التكيف نفسياً، فقد تعاطى مع عجزه عن الحركة في شهره الأول بهدوء وتقبل، وإن كان قد جزع أحياناً حين كان يشك في قدرته على السير ثانية... ولكن تقدمه الرائع من العجز الكامل إلى السير دون مساعدة أحد كان سريعاً بالنسبة إلى سوء إصابته.. وهو الآن يتعامل

مع عرجه بنضوج كبير.

قطع صوت أنثوي شاب على سيليا أفكارها:

ـ أترغبين في استعارة مرطب يحمي بشرتك من الشمس؟

كانت سيليا قد بدأت تشعر فعلاً بالشمس تحرق بشرتها الناعمة، فجلست مبتسمة ترفع نظارتها إلى مقدمة شعرها الأحمر.

ـ شكراً.

ـ سيليا!

نظرت سيليا بفضول إلى الفتاة الشابة الجالسة على الكرسي الطويل القابع جانباً.. لم تكن تبدو مألوفة لها.. شعرها الأسود الطويل معقود إلى الخلف كذيل الحصان، وجهها صغير وجميل وعيناها المتسعتان دهشة رماديتان.. عينان رماديتان؟

سرعان ما تعالى اهتمام سيليا وهي تمعن النظر في وجه الفتاة. فالذقن عنيد والفم شديد العزم، أما هاتان العينان الرماديتان فأليفتان.

ـ كارول...؟

صاحت الفتاة بإثارة:

ـ أجل..! كيف حالك؟ تبدين بصحة وعافية.. ماذا تفعلين في هذه الأيام؟ أوه.. جئت بصحبة جون، مما يعني أنك الممرضة التي يتحدث عنها بفخر.. هل قلت شيئاً مضحكاً؟

كان ثغر سيليا قد أفتر عن ابتسامة ازدادت اتّساعاً وهي تسمع سؤال الفتاة:

ـ حسناً.. حتى الآن أجبت عن جميع الأسئلة.

لولا ضحكتها هذه لبكت! كانت تظن أن عائلة بادجر قد خرجت من حياتها، فإذا رؤية كارول ثانية بعد هذا الزمن كله تذهلها

وتفاجئها.

ابتسمت كارول أيضاً:

ـ آسفة.. ولكنني فوجئت بك.

وهذا دون ريب أغرب تصريح سمعته هذا السنة.

ـ كيف كانت أحوالك؟ (سألت سيليا)

هزت الفتاة رأسها: "بخير".

ـ ووالدك؟

نظرت كارول بلهفة إلى التعبير الكليل على وجه سيليا وأجابت:

ـ إنه بخير أيضاً.. يعمل جاهداً!

بدا التصلب على وجه سيليا وهي تشيح صورة برودي عن رأسها:

ـ طالما عمل جاهداً.

لن تسمح لهذه الصدمة أن تربك تناغم حياتها..

وتناهى إليها صوت كارول سائلاً: "ألم تريه منذ...

فقاطعتها بحدة:

ـ لا.. لا. ذكرت شيئاً عن مرطب للبشرة..

ـ أوه.. بالطبع. ألا ترغبين في الحديث عن أي شيء؟

لم ترفع سيليا بصرها عن المرطب الذي كانت تضع منه قطرات على بشرتها..

ـ وهل هناك ما يقال؟

كانت تعرف أنها تتوق إلى معرفة أي شيء عن برودي، ومن المؤكد أن ابنته تعرف الكثير...

ـ كنت أفكر في أنني لم أتوقع انفصالكما هكذا، كنتما...

حسناً.. كان معجباً بك حقاً..

ـ أنا واثقة من هذا... لكن كانت هناك أمك وكنت أنت.

ابتسمت كارول:

ـ أوه.. أجل.. أمي.

دهشت سيليا من ردّها فعبست:

ـ لم تشعري يوماً بهذا الشعور تجاهها.

هزت الفتاة كتفيها:

ـ الناس يتغيرون. كان هذا منذ ست سنوات.. يوم ذاك كنت في الثانية عشرة، طفلة حقاً.

ولكن تلك الطفلة هي من ساعدت على توسيع الشق بينها وبين برودي... كانت كارول ترفض أي أنثى في حياة أبيها عدا أمها.. مما جعل علاقة سيليا مع برودي مستحيلة.. وكان ذلك قبل عودة دونا!

أضافت سيليا بضعف:

ـ لم أكن أفهم الموقف حينذاك.

ـ بالطبع ما فهمته ولا أظنني أنا أيضاً، فقد كنت في الثامنة عشرة يومذاك.

ـ لكنك أحببت أبي!

ـ ربما ظننت هذا...

ـ بل أحببته.

ـ ربما.. لفترة ما. ولكن رجلاً له مركز أبيك لن يتورط مع فتاة في الثامنة عشرة، على أي حال... فقد كان كبير الجراحين حينذاك.

هزت كارول رأسها:

ـ وما زال، إنما في مستشفى أخرى أكبر حجماً.

لا شك في هذا.. وهو الآن في التاسعة والثلاثين، ما زال يرتقي درجات المجد في مهنته.. وكأنه خُلِق من أجله.

ـ وماذا عن أمك. كيف حالها؟

انتفضت كارول:

ـ أمي؟ ولكن ألم تعرفي؟

ـ أعرف ماذا؟

ـ أمي ماتت منذ ثلاث سنوات.

ـ لم... لم يكن لديّ فكرة.. آسفة.

دونا بادجر ميتة منذ ثلاث سنوات، وهي لا تعرف ذلك! وهذا يعني أن برودي يعيش وحيداً منذ ذاك الوقت.. أم تراها مخطئة في ظنها هذا؟ برودي ليس ممن يُؤثِر الوحدة طويلاً... ألم يلتقيا أثناء فترة انفصاله المؤقت عن زوجته؟ أولم يتخلَّ عنها حالما قررت دونا العودة؟ إنها واثقة من وجود امرأة في حياته..

ـ هل تزوج والدك ثانية؟

ـ تزوج بعمله وسيبقى على زواجه به دائماً.

وقفت سيليا بحدة:

ـ أجل.. أظنني سأتوجه للسباحة.. وداعاً...

عدَت إلى حافة البركة، فنادت كارول:

ـ أوه.. ولكن..

لم تنتظر سماع المزيد، بل رمت نفسها في المياه الزرقاء الصافية مرحبة ببرودتها مجتازة البركة عدة مرات قبل أن ترفع رأسها.. كانت كارول قد تركت مكانها، ووقفت تصغي دون اهتمام إلى شاب كان يحادثها من طرف البركة الآخر. فسحبت سيليا نفسها

إلى حافة البركة قبل أن تسرع إلى غرفة الملابس، تجنباً لمحادثة ثانية مع كارول.

التقت بليندا خارج غرفة الملابس:

ـ آه.. أنت مستعدة للرحيل.. لعلك لا تمانعين، فجون أخذ حاجته من الحركة اليوم.

انصبَّ اهتمام سيليا على مريضها:

ـ كان يجب أن أفكر في هذا...

ـ بالطبع لست مضطرة.. إنه راشد نفسه.. ويجب أن يعرف متى عليه الذهاب، وقد أدرك لحسن الحظ ذلك. إذا أردت البقاء أجد من يقلك حتى...

ـ لا.. أنا مستعدة للذهاب.. فالشمس مرهقة.

ـ طبعاً.. هل حاول أحد أصدقائنا إزعاجك؟ هناك بعض الشبان...

ـ لا.. لا.. ليس الأمر كما تتصورين. إنه تعب ليس إلا...

ـ تبدين.. منزعجة من شيء ما؟

أهي شفافة إلى هذه الغاية؟

ظنت أنها قد بنت قوقعة واقية حول نفسها، ولكن محادثة قصيرة مع كارول بادجر شتّتت أفكارها وأرهقت أعصابها:

ـ إنه التعب.

ثم تبعت الفتاة الأخرى إلى السيارة.

أثناء الطريق نظر جون في المرآة إلى الخلف فسأل عابساً:

ـ أنت بخير؟

ردت ليندا:

ـ إنها متعبة.

ـ ولكنك كنت مستريحة حينما ألقيت عليك نظرة وأنت قرب البركة. تحدثت إلى كارول فترة وجيزة.

رطبت سيليا شفتيها، وسألت بصوت عادي.. عادي جداً:

ـ لم تزركم في منزلكم أثناء مرضك.. أليس كذلك؟

ـ بل زارتني مرة وذلك في يوم إجازتك.

ردت مازحة:

ـ أوه.. ذلك اليوم الفريد!

ضحك لها: "وقحة".

ردت ليندا:

ـ لم تبتعد عنك إلا أياماً قليلة.

ـ ولكنها تمتعت بكل دقيقة قضتها معي.

ردت سيليا بحرارة:

ـ أجل.. لقد تمتعت كثيراً.

ضحكت ليندا:

ـ لا تقولي هذا له... وإلا أصابه الغرور!

تأوه:

ـ وأنا من حسبتك مغرمة بي.

ردت ليندا ببرود:

ـ أحبك.. أحياناً.

ـ شكراً!

ضحكت سيليا:

ـ أظنك جلبت ذلك على نفسك.

آه كم ستشتاق إلى أفراد هذه العائلة المتكاتفة، ولكنها اختارت مهنتها، وتمتعت بها، وإذا كانت تحس أحياناً بالوحدة فهذه

غلطتها.. فعروض الصداقة من الشبان كانت موجودة منذ سنوات طويلة. ولكن ما من رجل كان يُقاس ببرودي.

برودي!.. ألن تتخلص من التفكير فيه يوماً؟ يبدو أن هذا مستحيل، فقد سمعت جون يذكر كارول بادجر أمام أبيه.

ـ لقد عادت كارول من فرنسا.

سأله جاك:

ـ وماذا عن برودي؟

ـ لقد عاد على ما أظن ومعه جدة كارول.

كريستبال... كريستبال إير إنها حماة برودي التي استقبلتها سيليا استقبالاً بارداً يوماً.

سألت كارين:

ـ أليستقر أم ليزور المنطقة فحسب؟

رد ابنها:

ـ ليستقر.

رددت كارين بصوت منخفض:

ـ مسكين برودي.. لا أظن أن من المجدي بقاء كريستبال في فرنسا بعد وفاة زوجها.

كريستبال إير أرملة الآن... ولكن سيليا لم تستطع تصور أن هذه المرأة المتكبرة المتعالية حزينة، مصدومة بخسارتها... لا هذا الدور لا يناسب هذه المرأة أبداً.

وجّهت كارين حديثها إلى سيليا مبتسمة:

ـ آسفة سيليا.. فمن الفظاظة التحدث أمامك عن أناس لا تعرفينهم.

قالت ليندا:

ـ لقد التقت كارول اليوم.

سألتها كارين:

ـ صحيح عزيزتي؟ إنها فتاة لطيفة.. أليس كذلك؟

ـ هذا ما بدا لي.. أرجو عفوكم.. لديّ تقارير أقرأها قبل الالتحاق بعملي المقبل.

هزت كارين رأسها متفهمة:

ـ طبعاً عزيزتي.

وقفت سيليا قرب جون قليلاً:

ـ هل ستكون على ما يرام؟

ضحك:

ـ لماذا؟ هل ستأتين فيما بعد لتدثريني؟

صاحت صديقته مهددة:

ـ عليها ألا تفعل!

رد ساخراً:

ـ ولمَ لا؟ ألم تكن تقوم بذلك في الأشهر الماضية.

نظرت ليندا إليها بفزع:

ـ سيليا..

ـ إنه يمزح.. كنت أساعده على الجلوس في السرير، لا على تدثيره!

تركت الغرفة وهي تسمع الدعابات والتعليقات الساخرة الموجهة إلى جون... لقد نسوا على الأقل الآن، موضوع كارول وبرودي...

ولكنها لم تنسَ.. فالذكريات جميعها اندفعت إليها اندفاعاً مع كل حبها وخيبة أملها وألمها...

كانت مهمتها الأولى في مهنتها هذه تقوم على رعاية أطفال كانوا معظمهم يعانون من أمراض شديدة الوطأة ولكنها رغم ذلك أمضت وقتاً ممتعاً، ولم يؤثر الموت فيها كثيراً!

أما مهمتها الثانية فكانت شيئاً آخراً مختلفاً... فقد كان عليها رعاية الإناث ابتداءً من عمر الثانية عشرة. ولكن الصغيرات سرعان ما كنَّ يشفين، أما العجائز فلم يكن شفاؤهن سهلاً دائماً.

تعلقت خلال هذه المدة بالسيدة دفيدسون وهي امرأة في السبعينات من عمرها.. كانت تقضي معها يومياً عدة دقائق تختلسها من أوقات عملها الدؤوب لتصغي إليها وهي تتحدث عن زوجها بارني وأولادها الستة، وأحفادها العشرين وأحفاد أحفادها الأربعة. كانت سيليا تحب هذه العجوز وتجد عندها من الود والحب ما لم تجده عند والديها.

في الواقع شاهدت سيليا برودي للمرة الأولى في غرفة السيدة دفيدسون وذلك حين كانت تتحدث العجوز عن زيارة زوجها المرتقبة، وهي زيارة أحبّ على قلبها من أي شيء آخر.. يومذاك نظرت جوانا إلى الخاتم الذهبي والذي أصبح رقيقاً بفعل الزمن وقالت بفخر:

ـ لم يخرج من يدي مذ وضعه بارني هنا.

وجدت سيليا أن الحب الذي ما زال في قلبي العجوزين، بعد خمسين سنة من الزواج رائعاً. فخلال أوقات الزيارة كان الزوج يمسك يد زوجته وكأنهما مراهقان، ولم يبدُ عليهما يوماً الغضب أو الخصام.

تناهى إليها صوت رئيسة العنبر الأخت آن:

ـ الستائر أيتها الممرضة.

شعرت بالذنب فارتدّت مسرعة ولكنها اصطدمت بالواقف وراءها مباشرة، فتمتمت معتذرة ترفع عينيها المرتجفتين إلى عينين رماديتين باردتين، ليس فيهما إشفاق على الحرج الذي وقعت فيه.

تراجعت بسرعة، فانضمت إلى الممرضات اللواتي دخلن غرفة العيادة مع أحد الأطباء.

وقالت باني دوغلاس هامسة:

ـ أرى أنهم أحضروا الرجل الكبير.

سألت سيليا بصوت هامس أيضاً:

ـ من هو؟

ـ برودي بادجر.. أليس ساحراً؟

كان وسيماً فعلاً كما قيل عنه تماماً. فالقال والقيل عن السيد بادجر الجذاب لم ينقطع يوماً.. وها هي ترى أن التقولات لا تفيه حقه، فهو أكثر من وسيم، بل إن وسامته مدمرة... كان طويلاً، رمادي العينين ذا أنف طويل مستقيم، وفم صارم، يعلو فك مربع الزاوية. وهو أشبه بمستشار منه بطبيب، وكان يرتدي الزي الأبيض المعتاد فوق بزّة دكناء مؤلفة من ثلاث قطع، تنسجم كل الانسجام مع جسده القوي الرشيق.

وهو إلى ذلك يخطف الأنفاس، وقد أبدت السيدة دفيدسون إعجابها «بطبيبها الشاب الوسيم».. مع أن برودي بادجر كان في بداية الثلاثين، وهو عمر صغير بالنسبة للعجوز، أما بالنسبة لسيليا فعمر النضوج.

بعد ذلك اللقاء الأولى، شاهدته سيليا عدة مرات في المستشفى، وذلك مع مستشارين أطباء. بدا لها رجلاً منعزلاً جعلته عزلته تلك هدفاً رئيساً للشائعات... مع أن العزلة نفسها جعلت من

الصعب على أحد معرفة الكثير عنه. وكانت سيليا تتوق إلى معرفة المزيد عنه، خاصة وقد بدأت تعاني من شغفها الأول برجل أكبر منها سناً.

بعد أسبوعين من لقائهما الأول، تحدث إليها برودي يوماً... وليته لم يكلمها.

كانت السيدة دفيدسون تتطلع بلهفة إلى باب العنبر المفتوح خلال ساعات الزيارة، حين دخل برودي بادجر منه فدنا من العجوز ووقف على مقربة منها يشد الستائر حول السرير بنفسه، ثم ظهر بعد عشر دقائق، متجهم الوجه.:

نادى سيليا التي كانت تجوب العنبر بقلق: أيتها الممرضة.. فنظرت إليه بعينيها الخضراوين.

ـ نعم؟ سيدي.

ـ ابقي مع السيدة دفيدسون عدة دقائق. فلا أريد أن تبقى وحيدة... إحدى بناتها ستحضر حالاً.

ذعرت:

ـ أوه.. طبعاً.. ماذا..

ـ لقد مات زوجها.

لم تنتظر سيليا سماع المزيد، وأسرعت تصرخ صرخة ألم مكتومة.. كان النور قد اختفى من عيني السيدة العجوز، التي كان كل ما فعلته الإمساك بيد سيليا وكأنها لا تريد تركها، والغريب أنها لم تكن تبكي.

وبدا أن الوقت توقف جامداً بعد هذا.. كان يمر دون أن تحس أي منهما به.. لم يكن هناك حديث بل صمت، كانت تستمد منه العجوز ومن وجود سيليا إلى جانبها بعض الراحة. فجأة تمتمت

السيدة دڤيدسون بصوت منخفض:

ـ كنا دائماً نقول إننا نريد الرحيل معاً.

ـ سيدة دڤيدسون...

قاطعتها العجوز بحزن:

ـ لن أحيا دون بارني.. يوماً ما ستفهمين ما أعني. أحببته طوال حياتي، لذا لن أعيش بدونه.

ـ سيدة دڤيدسون يجب ألا تتحدثي هكذا...

ـ آنسة هالام!

رفعت سيليا رأسها فرأت برودي بادجر واقفاً خارج الستائر المسدلة حول الفراش، فحررت يدها بلطف من يد العجوز ودنت منه تسأل بصوت منخفض:

ـ نعم سيدي؟

ـ كيف حالها؟

إنه سؤال غريب يطرحه مستشار على ممرضة صغيرة. رطبت شفتيها بتوتر:

ـ إنها مصدومة كثيراً.. سيدي. ولكنها بدأت الآن تستعيد وعيها... وتتحدث عن رغبتها في الموت.

ـ يا إلهي! آسف آنسة هالام. سأدخل لأتحدث إليها بضع دقائق.. لقد تأخر أولادها.. فقد كانت صدمة لهم أيضاً. ولكن الأخت آن قالت إنك على علاقة حميمة مع السيدة دڤيدسون.

تعالى الدم إلى وجهها:

ـ أجل.. أحب أن أعتقد هذا.

ـ إذن سأقدر لك جلوسك معها حين أرحل.

ـ أجل.. دكتـ... أو آسفة.. سيدي. طبعاً.

لم تتردد مع أنهما كلاهما يعرف أن مهمتها انتهت منذ ساعات... أم تراه لا يعرف ذلك؟ ولكن الأمر لا يهم على أية حال، فهي لن تترك العجوز.

ـ أعدّي لك فنجان شاي، أو ما تأكلينه في الوقت الذي أكون فيه مع السيدة دڤيدسون.. أمامك عشر دقائق.

كـان من حسن حظها أن الأخت آن أعدّت لها وجبة ساخنة مع كوب شاي. وقالت لها:

ـ كان عليك الذهاب منذ ساعات. ولكن السيد بادجر أصرّ على أن تلازمي السيدة العجوز... وأنا أوافقه الرأي في مثل هذه الظروف.

خرج المستشار من العنبر بعد عشر دقائق بالضبط غارقاً في أفكاره، أما سيليا فأسرعت تتجاوزه قاصدة العجوز التي تنهدت قائلة:

ـ إنه شاب لطيف. ولكنه لا يفهم الحب الذي بيني وبين بارني.

ـ أهو متزوج؟...

ـ لقد قيل لي إنه انفصل عن زوجته.. أنتم الشبان في هذه الأيام لا تبالون كثيراً بقسم الزواج!

ـ أنا لست متزوجة سيدة دڤيدسون.

هزت المرأة رأسها:

ـ ستتزوجين.. وسيكون زوجك رجلاً محظوظاً. أنت طفلة جميلة سيليا، فانتظري الرجل المناسب.. كما فعلت أنا.

بعد وقت قصير، نامت العجوز ولكن سيليا لازمتها... كان الظلام قد هبط منذ ساعات حين أطل عليها برودي بادجر مجدداً. ولأنها تعرف كثرة الأعمال الملقاة على عاتقه، تأثرت وهي ترى منه

هذا الاهتمام المنصب على مريضته.

سحبت سيليا أصابعها من أصابع المرأة وخرجت لتكلمه:

ـ كيف حالها؟

ـ نائمة.. أين عائلتها؟

ردَّ عابساً:

ـ ابنتها التي كانت ستأتي لتجلس معها انهارت أمام مدخل المستشفى فأدخلت إلى قسم الطوارىء.. وقد جئت الآن لأعاين الأم قبل السماح لابنتها برؤيتها.

ثم دخل متفقداً مريضته.

خرج بعد عدة دقائق، ويده على صدغه قائلاً بإيجاز:

ـ بإمكانك الذهاب آنسة هالام.. ما عاد أمامنا ما نفعله هنا.

دفعته سيليا، غير عابئة بمن هو، تنصبّ نظراتها المذعورة على جسد السيدة الجامد، وقالت تجهش بالدموع:

ـ أنا.. أنت.. إنها لم تمت.. لا يمكن!

امتدت يده لتعينها فقد ترنحت بشدة حتى كادت تقع أرضاً..

ـ لقد ماتت.. منذ ساعة. تبدو وكأنها توقفت عن التنفس.

ـ لا!

ـ آنسة هالام...

انتزعت نفسها من ذراعيه.

ـ دعني وشأني!

وراحت تعدو ودموعها تنساب دونما رادع.

خرجت من المبنى إلى الحدائق. تشق طريقها متعثرة.. دون أن تعي أن أحداً يتبعها حتى أوقفتها ذراعان قويتان، أدارتاها فوجدت وجهها وقد دُفن في صدر قوي.

تمتم برودي:

ـ أنا آسف.

وتركها تبكي عدة دقائق على قميصه الناصع البياض الذي تتصاعد منه رائحة عطر ما بعد الحلاقة. ثم هزها بلطف حينما عجزت عن إيقاف الدموع:

ـ كفى.. سيليا.

رفعت وجهها الطافح دمعا إليه:

ـ هذا ليس عدلاً.. كانت لطيفة...

أخرج منديلاً أبيض وبدأ يجفف به دمعها ويقول بلطف:

ـ أنت لا تنظرين إلى الأمر من وجهة نظرها.

ـ لا أفهم...

ـ إنها مع زوجها الآن، وهذا ما كانت ترغب فيه.

ـ أتصدق هذا فعلاً؟

هز رأسه:

ـ طبعاً.. ليس الوقت وقت البكاء، فلم تكن ستشفى ثانية سيليا... فعلنا كل ما بوسعنا لها.. ولكن ما فعلناه لم يجدي.

عضّت شفتها:

ـ ورغم ذلك لا يبدو لي ذلك عدلاً.

أعطاها منديله:

ـ الحياة نادراً ما تكون عادلة.. انفخي أنفك. ستشعرين بتحسن.

ـ لديّ... لديّ منديلي.

بعد مرور الصدمة الأولى أحست بأن هذا الوضع غير طبيعي، فيجب ألا يعرف برودي بادجر بوجودها أصلاً... فما بالك

بمواساتها هكذا!

ـ أنا.. آسفة. لم أقصد البكاء على قميصك!

ـ هذا لأنك لم تكوني قريبة من الموت هكذا من قبل.

كان صوته خشناً وهو يرفع كتفيه المرهقتين:

ـ صدقيني إن الأمر ليس سهلاً أبداً.

انتفضت سيليا وهي تنظر إليه بدهشة.. كان شاحباً جداً.. حول فمه توتر وعلى تعابير وجهه التجهم. قالت:

ـ آسفة.. لم أكن أعرف.

ـ نادراً ما يعرف الناس أن للأطباء مشاعر!

لم يخطر ببالها البتة أن هذا الرجل الصلب قد يؤثر فيه الموت كما أثّر فيها هي.

ـ أنا آسفة حقاً.

ـ ولكنك لم تقتنعي.. أليس كذلك؟

ـ أقتنع؟

ـ إنني أشعر كما يشعر سائر الناس...

ـ أوه.. أنا.. ولكنني...

انقطعت كلماتها حين انحنى وجهه إليها.. برودي بادجر يعانقها! إنها لا تصدق ذلك. ولكن كيف تنكر وجود هاتين الذراعين اللتين تحتوانها برقة.. عندما رفع وجهه لينظر إليها شهقت باستغراب:

ـ سيد بادجر.

ـ هل صُدمت؟

تضرّج وجهها حياء:

ـ حسناً.. لن أنمادى حتى أقول هذا.

ارتفع الحاجبان الأسودان فوق العينين الرماديتين:

ـ ألن تقولي هذا؟

ـ لا.

لقد أعجبتها طريقة عناقه، ولكنها لم تصدم بل دهشت.. نعم الدهشة أفضل كلمة لوصف ما أحست به... فبرودي بادجر رجل خبير بالعواطف، وقد عانقها بنعومة جعلت قلبها يتوقف عن الخفقان ولكن ذلك لم يمنعها من الاستجابة له عفوياً.

ـ لكنني أقول هذا لأن لديّ ابنة تصغرك بست سنوات.

ـ ولديّ أب يكبرك بخمس عشرة سنة. لذا رجاء لا تظهر نفسك بمظهر الأب لي.

أضاء المرح حول عينيه، وقال:

ـ هذا يضعني بحزم عند حدي.. شكراً سيليا.. أظنني بحاجة إلى من يذكرني أنني في الثالثة والثلاثين. والآن اذهبي، على أن تصدقي أن السيدة دفيدسون هي الآن حيث كانت ترغب أن تكون... مع زوجها.

ردت سيليا دون وعي على التحيات التي تلقتها وهي في طريقها إلى غرفتها.. كانت ما تزال حرينة على صاحبة الوجه البشوش والقلب العطوف، وقد أنساها حزنها ذاك العناق غير المتوقع.

كان في ذاك الوقت قد بقي أمامها يوم واحد من العمل حتى تأخذ عطلتها التي ستمتد أربعة أيام، وهي فترة تتيح لها الراحة. لكن هذا اليوم المتبقي بدا لها طويلاً مملاً خاصة وأن السرير الفارغ وسط الغرفة يذكرها بشكل دؤوب بموت السيدة العجوز التي أتت ابنتها لتجمع حاجيات أمها، وهي في حالة حزن شديد على والديها اللذين فقدتهما في يوم واحد

كانت عطلة سيليا مريحة بعد المحنة التي مرت بها.. مع أنها كالعادة، أمضت الأيام مع الممرضات لأنها نادراً ما تقوم بزيارة والديها.

في اليوم الثالث حضرت جنازة الزوجين دڤيدسون المشتركة احتراماً لهما وإظهاراً لحبها.

لم ترتدِ الأسود، لأنها ليست فرداً من أفراد العائلة.. ولكنها عقدت شعرها الطويل بشريط أسود عقصته على مؤخرة رأسها.

كانت تقف خارج المستشفى تنتظر الباص للتوجه إلى حيث تقام الجنازة حين سمعت أحدهم يقول:

ـ أتودين أن أقلك سيليا؟

عبست في وجه سائق السيارة الفخمة:

ـ سيد بادجر.

مدّ يده ففتح الباب:

ـ اصعدي.

ـ ولكن...

ـ أنا متوجه للمشاركة في العزاء. رجاءً اصعدي قبل أن يزدحم السير.

صعدت إلى الرولز رويس الحمراء التي كان هدير محركها لا يكاد يسمع

فجأة كسر برودي بادجر الصمت المتوتر بينهما:

ـ تبدين مختلفة دون بزّة التمريض الرسمية.

ـ شكراً لك.. أظن هذا.

رأته للمرة الأولى مبتسماً ابتسامة أظهرت غمازتيه العميقتين وأسنانه الشديدة البياض أمام بشرته السمراء، كما أظهرت عينيه

الرماديتين الدافئتين.

ـ قد تعتبرين قولي إطراء.. ولكنني أرى أن الزي الرسمي رائع عليك.

توردت خجلاً.. لم تكن منذ ثلاثة أيام قد شاهدته إلا قليلاً، وكانت كلما لمحته شعرت بالحرج بسبب ما جرى بينهما.

قال لها بعدما طال صمتها:

ـ نحن نقصد جنازة سيليا لا منزلي.

ـ أجل.. سيدي.

ـ اسمي برودي.

لا يمكن أن تكون علاقتها مع هذا الرجل المتسلط غير رسمية، فبقيت صامتة حتى أوقف السيارة أمام الكنيسة.

تفرّس في وجهها الشاحب وهو يساعدها على الخروج، وقال لها بصوت منخفض:

ـ لا بأس عليك سيليا. سأكون إلى جانبك.. إذا أردت الخروج قولي لي وسنخرج حالاً.

كانت مراسم الجنازة هادئة ومؤثرة تأثيراً جعل الدموع تتدفق من عينيها. حينما انسابت الدموع حارة وجدت منديلاً أبيض أمام عينيها، فأخذته شاكرة.. وسمعته يتمتم:

ـ ستصبح هذه عادة... احتفظي به فقد تحتاجينه...

وأمسك ذراعها ليتوجها لتقديم التعازي، وعندما تلقيا دعوة من الابنة الكبرى للذهاب مع العائلة إلى منزلهم رفض بأدب قائلاً:

ـ أخشى أن أكون مضطراً وسيليا للعودة الآن.

ابتسمت المرأة بوهن:

ـ أعرف أنكما مشغولان... ونحن شاكرون مؤاساتكما لنا.

وكأنهما زوجان حقاً! فما من أحد رأى في وجودهما معاً ما يدعو للغرابة ولكن الأمر غريب فعلاً وهي لا تكاد تصدقه... فالأطباء المستشارون الكبار، لا يبدون مثل هذا الاهتمام بمن هم أصغر منهم سناً ورتبة. ولكن كيف لا تصدق ذلك ورائحة العطر الرجولي العابق في المنديل يؤكد لها أن ذلك أمر حقيقي.

أثناء الطريق اقترح عليها:

- أتودين شرب الشاي؟

- .. لا.. شكراً لك.. عليَّ العودة الآن.

- ولماذا عليك العودة؟ أليس اليوم يوم عطلتك؟ أم لديك موعد آخر؟

- وكيف عرفت أن اليوم يوم عطلتي؟

ردَّ ساخراً:

- ألست هنا معي؟

جعلها غباؤها تنفرج خجلاً ولكن ذلك لم يمنعها من الرغبة في مشاطرته فنجاناً من الشاي أو في معرفة الأسباب التي تدفعه إلى فسخ زواجه. إنما هل تستطيع الاستفسار؟ لا.. ذلك مستحيل. وهل تستطيع قبول دعوته؟ وقالت كاذبة:

- لديّ موعد فعلاً. ربما في وقت آخر.

- حسناً.. كما تشائين، في وقت آخر.

حين وصلت إلى غرفتها في مسكن الممرضات، تذكرت أن منديله ما يزال معها.. عليها الآن غسله وكويه وإعادته إليه في أسرع وقت ممكن.. ولكن لو كانت صادقة مع نفسها لاعترفت بأنها مسرورة بهذه الحجة التي ستتيح لها التحدث إليه من جديد.

أنهت هذه القرصة في اليوم الأول بعد العطلة. وكان يومذاك

برودي يقوم بجولته المعتادة مع ستة من تلاميذ الطب الملهوفين لسماع كلمة منه، وكانت الأخت آن تتقدم بين يديه لتزوده ببطاقة المعلومات عن كل مريض حينما يحتاج إلى ذلك. وكان هو أول من غادر مكتب الأخت آن بعد الجولة فانتهزت سيليا الفرصة.

أسرعت خلفه تخرج المنديل من جيبها:

- سيد بادجر!

تناوله منها دون كلمة، ثم وضعه في جيبه..

قالت له "شكراً" ويدها تلمس كمّ سترته. فنظر إلى يدها القابعة على كمّه، ثم نقل بصره إليها ببرود.

- أجل.. هل تسمحين لي الآن؟

أخذت صده على ما هو عليه تماماً.. وأقسمت على عدم إزعاجه ثانية. فقد اتضح لها أنه ندم على صداقته التي أقامها معها يوم أمس لذلك لن تذكره بها أبداً.

ذلك المساء تلقت مخابرة، كانت خطواتها بطيئة وهي تقصد غرفة الهاتف المشتركة لأنها تعرف من المتصل، فهي أمها التي ستتجادل معها لأنها لا تزورهم إلا قليلاً. وضعت السماعة على أذنها:

- آلو..

الصوت الذي ردَّ عليها كان صوت رجل بكل تأكيد:

- سيليا؟

علت وجهها تقطيبة حائرة. فليس المتصل والدها.

- نعم.

- أريد رؤيتك.. يجب أن أراك.

- من المتكلم؟

تمتم لنفسه:

- يا إلهي! لقد جننت دون شك.. يؤسفني إزعاجك... أنا...

فجأة عرفته:

- برودي؟ أهذا أنت؟

- أجل... لقد واجهت مشكلة منذ برهة مع كارول...

- كارول؟

- ابنتي.. لا يهم.. ما كان يجب أن أتصل بك. أنا آسف لأنني أزعجتك.

ردت بلطف:

- أتريد التحدث عن الأمر؟

وان صمت طويل قبل أن يتنهد:

- أجل. يجب أن أتحدث إلى أحد. ولكنني أجد صعوبة في التحدث عنه هاتفياً... ولكنني لا أستطيع ترك كارول لأن مديرة المنزل في إجازة.

- أين تقطن؟

- أين..؟ سيليا... هل تقصدين أنك قادمة إلى منزلي؟

- إن شئت ذلك.

- سيليا أمتأكدة من رغبتك في المجيء؟

ردت بسرعة:

- كل التأكيد... ما هو العنوان؟

لم يتردد ثانية ولا هي ترددت. ارتدت سترة خفيفة فوق قميصها الموضوع تحت الجينز المشدود على خصر نحيل ضيق. حين أعطته العنوان رفع سائق التاكسي حاجبيه وطلب منها أجراً مرتفعاً،

فالعنوان يدل على أنها قادرة على الدفع، فهو في حيّ فاخر من المدينة، والمنزل في ساحة خاصة.

فتح برودي الباب قبل أن تدق الجرس، فإذا به مختلف عن برودي بادجر الذي تعرفه في المستشفى.. كان يرتدي ملابس بسيطة كملابسها: سروالاً أسود وقميصاً رمادياً غير مزرر عند الياقة.. قال هامساً ونظراته تجول عليها وعلى وجهها الخجول:

- سيليا!

- أجل.

تنهد بأسى، وأدخلها إلى المنزل قبل أن يضمها بحنون بين ذراعيه.

- يا الله، سيليا!

كان عناقه حاراً وعنيفاً، ليس فيه إلا رغبة قوية.

- سيليا، سيليا، سيليا!

كانت صيحته الأخيرة باسمها ممزوجة بضحكة انتصار وابتسامة من ابتساماته النادرة تضيء وجهه المتجهم.

- يا إلهي.. ما أجملك!

رطبت شفتيها وهي تعي تماماً قوة مشاعرهما من خلال هذا العناق العنيف.

- وهل أنا جميلة حقاً؟

- أجل!

وضع ذراعه على خصرها ثم رافقها إلى غرفة جلوس عصرية، أثاثها متعة للنظر. فثمة بسط بيضاء فوق أرضية لامعة، ولوحات حديثة معلقة على جدران بيضاء.

- زوجتي اختارت الديكور.. ولم تتح لي فرصة تغييره بعد.

- طبعاً.. أنتما منفصلان.

- على طريق إتمام معاملات الطلاق.. وهذا بالتحديد ما جعلني أتجادل مع كارول.

- أوه.. أتظن أن من الحكمة مجادلتها في أمر كهذا؟ إنها تحتاج إلى حبك وتفهمك، لا إلى جدالك.

- حاولت أن أكون متفهماً، ولكنني أخشى أن التفاهم معدوم بيننا في الوقت الحاضر. فلديها فكرة سخيفة عن رغبتي في إحضار نساء إلى المنزل، وهذا تصرف ليس من شيمي.

- أبي..

وقفت فتاة صغيرة في الباب ثائرة العينين اللتين ما إن وقعتا على سيليا حتى اشتعلتا غضباً:

- لم تهدر وقتك إذن.. أليس كذلك؟ وأنا من أردت الاعتذار عمّا بدر مني!

- كارول..

- دعني وشأني.. أمي على حق، يجب ألا نثق بالرجال!

ثم خرجت من الغرفة كالعاصفة، فتبع خروجها ذاك صمت هائل لكن سيليا استجمعت شتات نفسها فقالت:

- لم تكن فكرة مجيئي إلى منزلك صائبة.. اعتقدت أنك حين تكلمني أستطيع مساعدتك، ولكنني بدلاً من هذا...

- تعرضت لفظاظة ابنتي.. الأمر على حاله منذ افتراقي عن دونا وقد بدأت أفتقر إلى الحلول.

- أظن أن ما تحتاجه ابنتك هو الوقت وخروجي أنا من هذا المنزل لتصعد إليها لترضي خاطرها.

- وماذا ستفعلين؟

- سأعود إلى بيت الممرضات لأدرس، وهو ما أنا بحاجة إليه حقاً! لا أدري كيف تتمكنون من تذكر تلك الدروس كلها.

- بالممارسة.. أتريدين الذهاب حقاً؟

- هذا أفضل.

- ولكن هل تريدين أنت ذلك؟

- لا..

- أملت أن يكون هذا ردك.. حين تكون مدبرة المنزل موجودة، تلازم كارول في غيابي، فهل تشاركينني العشاء غداً؟

كانت سيليا مخدّرة تقريباً بعمق عينيه الرماديتين، فردت مخطوفة الأنفاس:

- أجل.. أجل.. سأحب ذلك.

وكانت تلك الأمسية إحدى عدة أمسيات قضياها معاً. ولم يكن في أيّ منها توتر كما كان في الأمسية الأولى. كان بينهما شبه اتفاق لجعل صداقتهما غير معروفة في المستشفى. لذلك كانا باردين في تعاملهما حين يلتقيان، علماً أن صديقاتها كنّ يمازحنها بشأن صديقها الجديد، ولكن لم تتوقع أي منهن أن يكون برودي بادجر هو الصديق... بل لم تكن تثق أن أياً منهن ستصدقها وإن أخبرتها..

رفضت كارول بادجر بشدة أن تقابلها، ونظراً للظروف، لم تستطع سيليا أن تلومها. فهي لم تكن تعلم ما هو الدور الذي تلعبه في حياة برودي، فكل ما تعرفه أنه في الوقت الحاضر يحتاج إليها، يحتاج إلى وجودها وهدوئها، يحتاج إلى مزاحها حين يكون متجهماً.

في إحدى الليالي تغيرت علاقتهما بشكل عنيف. تلك الليلة اتصل بها برودي ليلغي موعدهما:

ـ وصلت حماتي لترى كارول. ولا يمكنني تجاهلها.. إنها جدتها.

ردت سيليا بهدوء:

ـ طبعاً.. أفهم هذا.

هل يخجل برودي من علاقتهما.. ألهذا كان مصمماً ألا يعرف أحداً بها؟

قال بعد صمت متوتر:

ـ تعالي وقابلي كريستبال وعندئذ تعرفين لماذا لا أريد أن تريها.

وهذا ما فعلت.. كانت كريستبال ما تزال جميلة رغم بلوغها العقد السادس، فجسدها نحيل وشعرها أسود تشوبه شعيرات بيضاء وهي إلى ذلك سليطة اللسان وقد عاملت سيليا وكأنها ليست أكبر من جفيدتها التي رضيت بالجلوس مع سيليا للعشاء لتتمتع بمعاملة جدتها السيئة للمرأة التي لا تحبها ولن تحاول أن تحبها.

كانت أمسية متوترة غير مريحة، فقد عمدت العجوز إلى تحذيرها بكلمات ودود عن سعي الرجال المتوسطي العمر إلى استعادة شبابهم مع نساء أصغر منهم عمراً. وقد حدث أن وجدت سيليا نفسها وحيدة معها في غرفة الجلوس وذلك حين صعد برودي ليتمنى لابنته ليلة سعيدة، فاستغلت كريستبال المناسبة لتحذرها منه.

سألها برودي وهو يعيدها إلى المستشفى:

ـ حسناً..؟

ـ ما كان يجب أن أحضر. إن حماتك مؤمنة بعودتك في النهاية إلى زوجتك.

تجهمت أسارير وجهه:

ـ لم أكن من غادر المنزل بل هي من فعل.

ـ وإذا طلبت العودة؟

ـ لم تطلب هذا إطلاقاً.

ـ ولكن..

ـ لا أريد مناقشة أمر زوجتي سيليا، فلا علاقة لها بعلاقتنا، ولكريستبال أن تعتقد ما تشاء، فلا أتوقع منك أن تصدقيها.

ولكن ليتها تثق بمشاعره التي يكنها لها! وصفت كريستبال اهتمامه بها وكأنه حلم رجل في العبث مع فتاة صغيرة. وقالت إنه بحاجة إلى امرأة أكثر حنكة، وإنه سرعان ما سيضجر من طفلة مثلها. ولكن الإنذار الأخير كان أشدها تأثيراً، فقد قالت لها إن دونا بادجر قد أدركت غلطتها وإنها تريد العودة إلى زوجها وابنتها.

وها هو برودي لا ينكر رغبته في عودة زوجته، بل كان ما قاله فقط انها لم تطلب العودة.

ـ سيليا!

ـ آسفة..

استيقظت من شرودها لتنظر إليه، فإذا بنظرته مستقرة عليها.. فأردفت:

ـ حماتك لا تحبني.

أجاب وقد ردَّ بصره إلى الطريق:

ـ ليس من المفترض أن تحبك.. فأنا أحبك.

سألته بصوت أجش:

ـ وهل تحبني؟

تركت يده المقود وأمسكت يدها:

ـ تعرفين هذا.

ـ أنا.. أنت لم تظهر لي يوماً حبك.. كنت دائماً.. متحفظاً

معي.

لم يرد عليها بل أرجع يده إلى المقود محدقاً إلى الأمام بجفاء.. يا الله! ماذا فعلت؟

أوقف برودي السيارة على مسافة غير بعيدة عن المستشفى كما كان يفعل عادة، ثم التفت إليها وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة:

ـ سيليا.. لولا... أخشى حين أبدأ بعناقك أن أعجز عن ردع نفسي عنك. أتفهمين هذا؟

اتسعت عيناها دهشة:

ـ لا.

تنهد:

ـ ما ظننت أنك ستفهميني.. تعالي إلى هنا..

وفتح ذراعيه لها، فانسلت إليهما دون سؤال، تشهق من شراسة عناقه لها، تذيب نفسها عليه، تتحسس سرعة خفقان قلبه..

كان يتأوه وهو يقول لها:

ـ أحبك... أحبك سيليا.

ضاعت في متاهات عواطفه بعد أسابيع من الشوق.. أمسكت رأسه بحرارة تضمه إليها.

ـ عودي إلى منزلي سيليا. تعالي معي...

ـ أنا...

ـ سيليا.. سيليا.. مخابرة لك!

توقف شريط ذكرياتها فجأة.. فبدا لها كل ما مضى.. حياً.. حقيقياً وكأنه حدث بالأمس القريب لا منذ ست سنوات.

بعد طرقة خفيفة على الباب دخلت ليندا:

ـ سيليا! لك مخابرة.

جرت سيليا نفسها من الماضي بجهد ووقفت تدفع شعرها بعيداً عن وجهها وتسأل:

ـ أتعرفين من؟

ـ كارول بادجر وهي تبدو في لهفة إلى مكالمتك.

تسمَّرت سيليا حالما سمعت الاسم. لماذا بحق الله تريد كارول بادجر مكالمتها؟ بدت الفتاة مسرورة برؤيتها اليوم، ولكنها لا تريد لهذا اللقاء أن يتفاعل وهذا ما ستوضحه لها.

ـ كارول.. أنا..

ـ أشكر الله لأنك هنا! إنه أبي، حصل له اصطدام سيارة خطير.. لقد أصيب في رأسه.. سيليا.. ليسوا واثقين.. من أنه.. سيحيا!

* * *

٢ ـ قلب في الظلام

ـ سيليا.. سيليا.. أما زلت هنا؟

ـ أنا.. أجل. أقلت إن والدك مصاب؟

كان صوتها هادئاً، وكأنها في حلم مزعج، بل وكأن كارول لم تخبرها بأن برودي في حالة خطيرة.

ردت كارول باكية:

ـ لقد اصطدم بشاحنة.. إنه في قسم الطوارىء في المستشفى.. لقد وقعت الحادثة وهو في طريق العودة.

أحست سيليا بوهن في أحاسيسها.

ـ فهمت.

ـ هل ستزورينه في المستشفى؟

صدمها الاقتراح وانتشلها من صدمتها.. تزور برودي؟ لا يمكنها ذلك!

ـ لا..

شهقت كارول:

ـ أنا بحاجة إليك سيليا.

ـ وجدّتك...

ـ انهارت تماماً.. فلم يمض وقت طويل على وفاة جدي. وقد وقع الحادث على رأسها كالصاعقة.. أعطيناها منوماً.. أنا بحاجة

إلى من يحبه كما أحبه أنا...

قاطعتها بحدة:

ـ أنا لا أحب أباك كارول.

ـ ولكنك أحببته يوماً.. أليس هذا ما اعترفت به لي اليوم.. أوه سيليا أرجوك!

ـ لا أستطيع كارول، تعرفين أنني لا أستطيع.

كان صوتها حزيناً، ويدها قابضة بشدة على السماعة، فردت كارول بصوت مخنوق:

ـ ظننتك تهتمين.. ظننتك تهتمين به!

ثم سمعت صفعة السماعة في الجهة الأخرى.. فانهارت فوق كرسي قريب من الهاتف، تحدق دون أن ترى إلى الجدار المقابل لها. لا تستطيع الذهاب إلى المستشفى.. فما الفائدة؟ برودي لا يريدها هناك وهي لا تريد أن تراه كذلك. لكن كارول قالت إنه يموت! برودي يموت؟ لا.. لن تتقبل هذا الخبر.

صاحت ليندا بصوت مصدوم حين خرجت من غرفة الجلوس فرأت وجهها الشاحب:

ـ سيليا! ما الأمر؟ ما الخطب؟

بللت شفتيها المخدرتين وقالت ببطء:

ـ وقع.. وقع لوالد كارول.. حادث وتريدني أن أتوجه إلى المستشفى لأكون معها.

علت وجه ليندا تقطيبة:

ـ فهمت.. على ما أظن.

تعالى الاحمرار إلى وجه سيليا وهي تشرح:

ـ عرفت السيد بادجر منذ سنوات.

ـ أحسست بشيء من هذا اليوم...

ـ كنا نعمل في المستشفى ذاتها.. هذا كل شيء.

ضغطت ليندا على يدها وكأنها تفهمها، ثم قالت بلطف:

ـ سأخبر العائلة أنك مضطرة للذهاب لرؤية صديق في المستشفى.

ـ شكراً لك.

وقفت دون تردد واتجهت إلى غرفتها.

لم تكن تعرف المستشفى الذي أُدخل إليه برودي وقد جعلها ذلك تتأخر دقائق حتى تعرف أين هو، ودقائق عدة أخرى لتتأكد من أنه ما زال في غرفة العناية وأن ابنته في غرفة الانتظار.

كانت كارول مجرد طيف بائس، يجلس وحيداً في زاوية الغرفة ولكنها نظرت نظرة رجاء إلى الباب وهو ينفتح، ثم أجهشت ببكاء حاد منتحبة وهي تركض لتلقي نفسها بين ذراعي سيليا التي راحت تهدىء روع الفتاة بصوت ناعم:

ـ لا بأس عليك.. لا بأس عليك كارول.

تعلقت كارول بها:

ـ علمت أنك ستأتين.. علمت أنك لن تخذليني!

إذن، كانت تفهمها أكثر مما تفهم هي نفسها! حين أوقفت السيارة في الخارج أعادت التفكير في ما تقوم به. أهي على صواب في قدومها؟ فقد لا يتذكرها برودي... لأنها لم تكن تعني له شيئاً... ولربما أزعجته رؤيتها من جديد. وإذا كان مصاباً كما تقول كارول فلن تساعده زيارتها هذه أبداً. سألت بلطف:

ـ ثمة أخبار جديدة؟

هزت كارول رأسها ونفخت أنفها، قبل أن تمسح الدموع عن

وجنتيها:

ـ أبداً.. جلست هنا ساعات... تقريباً ساعتين.. بدتا لي دهراً. أما الطبيب فلم أره منذ أن وقعت أوراق المعاملات لإدخاله غرفة العمليات.

ـ أتعنين أن برودي... في غرفة العمليات الآن؟

ـ أجل... جمجمته مكسورة.

تأوهت سيليا:

ـ يا رباه...!

لكنها أدركت أنها لن تساعد كارول بتصرفها هذا، فراحت تهدىء من روعها:

ـ سيكون بخير. سأرى إن كان باستطاعتي معرفة شيء. اجلسي هنا وسآتيك بفنجان قهوة.

تعلقت كارول بيدها مذعورة:

ـ لن تتأخري؟

سرعان ما وجدت الممرضة المسؤولة عن قسم الطوارىء، فذكرت لها من هي ثم طلبت معلومات إضافية عن برودي.

نظرت إليها الممرضة الشابة بإشفاق.

ـ نحن جميعاً قلقون عليه. إنه رئيس الجراحين في المستشفى. تعلمين هذا.

لا.. لم تكن تعرف هذا!

ـ من يجري له العملية؟

تنهدت الفتاة:

ـ كانت حالة السيد بادجر خطيرة حين وصل.. وقد عمد إلى إجراء العملية مساعده الأول جوناثان هال. أحس أنني مسؤولة جزئياً

عن الحادث.

عبست سيليا.. فماذا تعني هذه الفتاة بقولها؟ إنها صغيرة وجميلة ليجدها جذابة!

ـ لولا استدعائي له إلى حالة طارئة لما كان في هذا الجزء من المدينة.

تنفست الصعداء... مع أنها لم تعرف السبب. فما برودي بادجر إلا جرّاح ماهر بالنسبة لها الآن. وهي لا تعبأ بما في حياته من نساء... فلِمَ الغيرة إذن!

قالت الممرضة:

ـ سأدخل إلى غرفة العمليات لأتفقد حاله لك... لن أتأخر.

ـ سأكون في غرفة الانتظار.. مع كارول ابنة السيد بادجر.

حملت سيليا القهوة إلى كارول وقد زادت السكر... ولكن كارول اشمأزت قليلاً من مذاقها ومع ذلك راحت ترتشفها لأنها ستفيدها هكذا. بعد عشر دقائق جاءت الممرضة لتقول بلطف:

ـ سيخرجون السيد بادجر من غرفة العمليات الآن.

سألت سيليا بلهفة:

ـ و... ماذا؟

ـ اجتاز مرحلة الخطر...

انهارت كارول بين ذراعي سيليا:

ـ الحمد لله!

ولكن سيليا علمت أن الممرضة لم تقل كل شيء بعد، بل رأت الشفقة في أعماق عينيها الزرقاوين.

ـ لقد أزال السيد هال عدة شظايا من العظام المحطمة، ولا نعرف بعد مدى الضرر نهائياً.

شهقت كارول:

ـ أتعنين ضرر الدماغ؟

ـ إنها إمكانية...

وهذا ما توقعته سيليا، فشعرت بثقل كارول التي أغمي عليها بين ذراعيها. ساعدتها الممرضة على تمديد كارول على المقعد.

ـ آسفة.. لكن السيد هال مشغول بحالة طارئة أخرى الآن. لذا أعتقد أن على الآنسة بادجر ألا تتوهم كثيراً...

ـ كان يجب أن تعرف.

ـ أُدخل السيد بادجر إلى غرفة خاصة حيث ستلازمه ممرضة. ولكنني لا أحسب أن السيد هال يعارض وجودكما معه إذا أردتما.

نظرت سيليا إلى كارول:

ـ سيتحدث السيد هال إليكما حالما يستطيع.. ثمة أمر آخر.. لقد أصيب السيد بادجر بجروح في وجهه أيضاً.. يجب أن تفهمي هذا؟

أحست سيليا بقشعريرة كادت تشلها.. وجه برودي الوسيم مجروح وممزّق... ماذا سيفعل إن بقي الجرح في وجهه؟ ولكن هل سيبقى على قيد الحياة! يا الله يجب أن يكون بخير.. يجب! قالت للممرضة بصوت منخفض:

ـ سأهيئها نفسياً للخبر.

وبدأت كارول تسترد وعيها متأوهة.

ولكن ما من أحد هيّأ سيليا نفسياً لما ستواجه! كان برودي مستلقياً، فوق الأغطية البيضاء شاحباً شحوباً كبيراً وضمادة سميكة حول صدغيه، وعدة جروح عميقة في وجهه استدعت الحاجة تقطيبها، كما كان في يديه جروح أخرى وكأنه رفعهما ليحمي

وجهه. الله وحده يعلم ما كان سيصيبه لولاهما.

جذبت كارول دون أن تتنفس بكلمة كرسياً لتجلس إلى جانبه، تتلمس برقة يديه المصابتين.. ونظرها لا يفارق وجهه الساكن.

فجأة راحت تتحدث بهدوء مما دفع سيليا للنظر إليها بحدة:

ـ لن أدعه يموت.

ـ كارول...

ـ ولن أدعه يبقى صرّة هامدة.

شهقت سيليا التي لم تكن تريد الاعتراف بهذا حتى لنفسها. لا.. لن يحدث مكروهٌ له... ليس وهو من ساعد الناس على الشفاء ببراعته وذكائه. كررت كارول بشراسة:

ـ لن أدعه!

بقيت سيليا صامتة، لا تريد قول أو فعل شيء قد يدفع كارول إلى الانهيار. بعد ذلك خرجت لتخابر آل هاموند لتخبرهم أن برودي ما زال صامداً..

حين عادت إلى الغرفة وجدت كارول في الكرسي نائمة، ولكنها لم تحاول تحريكها لئلا تزعجها، فالنوم هو خير ما تقوم به إذ ستحتاج إلى قواها حين يسترد برودي وعيه.

نظرت سيليا إلى الرجل المستلقي على السرير هامداً تفكر في ما سببه من دمار في حياتها. نعم لقد كانت صغيرة على متطلباته، لكن صغر سنها لم يمنعها من أن تريد ما أراد.

بدأ يتحرك متململاً دون إصدار صوت وجسده يقاوم الأغطية التي تقيد حركته. فعلمت أنه لم يسترد بعد وعيه ومع ذلك أرادت طمأنته بطريقة ما:

ـ أنت بخير برودي، نحن هنا، كارول وسيليا.

تمتم، فانتفضت بحدة:

ـ سيليا.. يا إلهي.. دونا.. لا تعني لي شيئاً، سيليا.. لا تذهبي.. أحبك أنت.. لا تتركيني!

تمتم بأشياء غير مفهومة للحظات ثم تأوه:

ـ دونا... لا تعني لي شيئاً، سيليا، لا شيء.. يا إلهي أحبك.. أحبك.. أرجوك لا تتركيني ثانية.. دونا...

وغاص في عالم اللاوعي مجدداً.

كانت الدموع تتدفق على وجه سيليا حين انتهى.. فتحركت مبتعدة وقد تقدمت الممرضة منه... لم ينسَ حتى وهو في غيبوبته حب زوجته.. ذاك الحب الذي كان السبب في انفصاله عن سيليا.

بعد أيام من رجوع زوجته إليه انقطعت عنها أخباره خاصة وقد طلب إجازة من المستشفى. وكان الداعي إلى إجازته تلك "أسباب عائلية". عرفت سيليا ما تعنيه "الأسباب العائلية"، فلقد شاهدت بأم عينها جمال دونا بادجر الخلاّب، وعرفت أن برودي يريد قضاء بعض الوقت مع زوجته لانطلاقة جديدة، فكان وقتذاك أن طلبت نقلها من المستشفى وقد قُبِل طلبها بسرعة. وحينما عاد برودي كانت قد رحلت ولم تره منذ ذلك الوقت حتى هذه اللحظة.

ويا لها من طريقة لقاء.

كان يبدو ضعيفاً عاجزاً في سريره، وهي لم تره قط عاجزاً... وسيحدث حين يسترد وعيه أن يكره ضعفه هذا وعجزه ذاك. ولكنه رجل على أي حال.. كائن بشري، لا نصف إله كما كانت تراه في أفكارها.

تحركت إحدى يديه فجأة على الأغطية البيضاء:

ـ كارول؟

ـ إنها هنا.

وأومأت إلى الممرضة لتحضر الطبيب.

أدار رأسه وهو يسمع صوت إقفال الباب خلف الممرضة.. ما زالت عيناه الرماديتان على حالهما وصوته ما زال عميقاً أجشاً:

ـ من أنت؟

رطبت شفتيها اللتين جفتا فجأة... وقالت هامسة:

ـ اسمي سيليا.

ـ سيليا.

بدا أن وعيه قد عاد إلى الضياع للحظات، رمش بعينيه الناعستين:

ـ لماذا تجلسين هنا في العتمة؟

عبست ناظرة إلى عينيه، والخوف يعصر قلبها:

ـ أتبدو لك الغرفة مظلمة جداً برودي؟

أين هو الطبيب؟ كان يجب أن يكون هنا الآن! بلل برودي شفتيه، وكأنه يجد صعوبة في الكلام. هز رأسه:

ـ ظلام شديد.. لماذا لا تضيئين الأنوار لأراك؟

ارتجفت سيليا عاجزة عن ردع يديها عن الارتعاش غير قادرة على فهم ما يقوله لها، عاجزة عن الكلام. أين هو الطبيب؟

ـ يا إلهي!

الذعر الذي كان يصرخ فيها انتقل إليه فجأة. فحاول الجلوس، بعدما وجد القوة لمقاومة يديها.. فرجته متوسلة تحاول تهدئته:

ـ أرجوك برودي.. استلق.. الحركة قد تزيد الأمر سوءاً.

شهق:

ـ سوءاً؟ وكيف تسوء؟ لا أرى...

وتأوه:

ـ يا إلهي.. أنا أعمى.. أنا أعمى..!

خرجت الكلمة الأخيرة ممزوجة بصرخة عذاب، وهو يقع على الوسائد فاقداً الوعي من جديد.

* * *

٣ ـ صوتك القاسي

أيقظ صراخه كارول التي راحت تنظر إلى تعابير وجه سيليا لتتأكد من صحة ما سمعت. فلمّا تيقنت أن هاتين العينين الرائعتين فقدتا النور وغرقتا في الظلام انهارت من جديد.

وصل الطبيب أخيراً مسرعاً إلى الغرفة وهو ما يزال في الثوب الأخضر الذي يرتديه أثناء إجراء العمليات، فعاين برودي قبل أن يُخرج كارول من الغرفة. قال لسيليا:

ـ يُستحسن اصطحاب الآنسة إلى البيت، فالسيد بادجر سيبقى فاقد الوعي بضع ساعات أخرى، وليس أمامها ما تقدمه له.

ـ ولكنه فقد البصر.. برودي فقد البصر...

ـ هذا ما كنت أشك فيه.

كان شاباً في أوائل الثلاثين، عيناه بنيتان لطيفتان، وشعره أشقر، ووجهه وسيم.

ـ اسمي هال آنسة هالام.. جوناثان هال... أنا من أجرى عملية السيد بادجر.

ـ أجل.. كيف كانت عمليتك الطارئة الأخرى؟

ـ جيدة جداً. أنت ممرضة كما علمت؟

ـ أجل.

ـ إذن ليس عليّ أن أخبرك بخطورة عمليته.. تلك الشظايا التي

انتزعتها من الدماغ كانت قريبة من أعصاب البصر.

اتسعت عيناها رعباً:

ـ إذن...

تنهد:

ـ العمى.. قد يكون مؤقتاً وقد لا يكون. استدعيت أخصائياً ليراه غداً. اعلمي يا آنستي أنني أشعر بما تشعرين به، فأنا وبرودي اشتغلنا معاً ما يزيد عن السنتين، وأكنُّ له احتراماً عميقاً على براعته كجرّاح وحبّاً على إنسانيته، ولكنني لست الجرّاح المختص الذي يحتاج إليه.. ولولا العملية التي أجريتها له لمات!

كان الطبيب مصدوماً ومتوتراً توتراً احتاج معه إلى المؤاساة هو أيضاً، فما مرَّ به قد أثّر على أعصابه.

ـ أفهمك.

وقد فهمت فعلاً... برودي أعمى أفضل منه ميت.. ولكنها لم تكن تعلم ما إذا كان شعور برودي سيكون كشعورها هذا.

قال الطبيب متجهماً وكأنه يستشف أفكارها:

ـ آمل أن يتفهم الوضع.

ضغطت على ساعده تهدىء روعه:

ـ سيتفهم.. والآن عليّ اصطحاب كارول إلى البيت.

ـ عرفت أن جدتها انهارت أيضاً؟

ـ أجل.

ـ ليتك بسبب ما تربطك بالعائلة من صداقة تلازمينها هذه الليلة.

ـ أوه.. ولكن.

ـ لا أظن أن من الحكمة ترك الآنسة بادجر وحيدة وإذا كانت

جدتها مخدرة..

أدركت أن لا خيار آخر أمامها.. كما أدركت أنها بمجيئها إلى هنا الليلة قد زجت نفسها مع عائلة بادجر... وأن كل من سيراها الليلة هنا سيحسبها صديقة العائلة، وسيبدو من الغريب، إذا لم نقل من قسوة الفؤاد التخلي عن كارول في وقت كهذا.

فهمت مدبرة المنزل القديرة الموقف بنظرة واحدة، فسارعت إلى مساعدة سيليا في إيصال كارول إلى فراشها حيث حقنتها سيليا بمخدر كان قد أوصاها به جوناثان. وما هي إلا لحظات حتى غطت في نوم عميق، فكان أن انسلت سيليا من الغرفة بهدوء.

جاءها صوت مصدوم من خلفها:

ـ يا الله... أنت!

التفتت سيليا لتواجه كريستبال إير التي بدت مختلفة كل الاختلاف عما مضى، فوجهها غضّنه الحزن وجسدها أنحلته السنون. كانت تتأرجح حتى كادت تقع فأسرعت سيليا إليها قبل أن تقع، وساعدتها في العودة إلى غرفتها. قالت لها كريستبال دهشة:

ـ هذه أنت.. أليس كذلك؟

ـ أنا سيليا هالام.. أجل.

ـ أنت الفتاة.. التي كان برودي على علاقة معها.. منذ سنوات؟ هل شاهدت برودي؟

ـ أجل.. كنت معه.

ـ وهل هو.. هل هو بخير؟

ـ استعاد وعيه فترة قصيرة، وبدا الطبيب راضياً عن حالته... يجب أن تستريحي الآن فبرودي سيحتاجك غداً.

ربما في الصباح قد تتقبل كريستبال خبر فقدان برودي بصره..

هذا إذا كان هناك مجال لتقبل خبر كهذا بهدوء! حينما أبدت كريستبال استعدادها للنوم انسلت سيليا من الغرفة.

قابلتها مدبرة المنزل في الأسفل عارضة عليها فنجان شاي.

ـ أفضل القهوة.

وكان أن شربت تلك الليلة أكثر من فنجان ولم تغفُ إلا فترة قصيرة على المقعد حرصاً على إبقاء أذنيها حذرتين لتلقي أي اتصال... حين انضمت إليها كارول في الثامنة صباحاً لم تكن قد تلقت أي اتصال.

قالت كارول بهدوء:

ـ لن تنزل جدتي هذا الصباح.. لقد شرحت لها حالة أبي.

ـ وكيف كان وقع الخبر عليها؟

ـ لم يكن سهلاً... ولكنها الآن أهدأ حالاً. آه ما ألطفك سيليا.. أنا لا أدري كيف أشكرك.

ـ لا تشكريني لأنني سعيدة بما قدمت من مساعدة.

ـ هل.. عرفك أبي؟

ـ يصعب عليه أن يعرفني... وما أظنه عرفني... سأل عنك كارول وهذا لا يعني أن لا عطب في دماغه.

ردت رداً خالياً من العاطفة:

ـ أصيب بالعمى فقط.

كانت الفتاة هادئة هدوءاً غريباً، متمالكة وعيها أكثر من اللازم. ولكن حين حصل الانهيار، تدفقت مياه السد بغزارة.

ـ إنه حي كارول. وهذا هو المهم الآن.

وقفت بشراسة:

ـ سأعود إلى المستشفى.. أترغبين في مرافقتي؟

ـ بل سأعود إلى منزل هاموند لتبديل ملابسي.

هزت الفتاة رأسها:

ـ أشكر لك عونك... يجب ألا أتطفل عليك أكثر من هذا.

عندما وصلت سيليا إلى منزل آل هاموند كانت ما تزال قلقة على كارول، ولكن كلماتها الأخيرة كانت تصرفها.. وماذا تتوقع غير هذا؟

مضى على سيليا شهر الآن في تمريض السيدة سميث... شهر لم ترَ خلاله برودي ولكنها علمت من كارين أن صحته الجسدية جيدة، وأنه سيخرج من المستشفى قريباً. وعلى ما يبدو أن كارول لم تتعرض للانهيار كما توقعت سيليا، بل أصبحت الآن عيني أبيها.

ذات يوم ودون سابق إنذار، اتصلت كارول تطلب لقاءها، لم تكن تريد الذهاب. فقد تمكنت للمرة الثانية من التخلص من تأثير عائلة بادجر... ولكن كارول أصرّت وبما أن مريضتها السيدة سميث كانت تستريح بعد ظهر ذلك اليوم، فقد قررت مقابلة الفتاة في مقهى قريب.

تطرقت كارول إلى صلب الموضوع مباشرة ما إن قُدمت القهوة لهما في المقهى:

ـ الأمر يتعلق بأبي..

ـ ماذا عنه؟

تنهدت كارول:

ـ يصعب أن أشرح لك.

ـ حاولي.

ـ ليتك تزورينه وترينه بنفسك.

ابتلعت ريقها بصعوبة:

ـ لا أظنها فكرة صائبة.

ـ ولكن عليك رؤيته فليس بمقدوري شرح وضعه لك ولكن أستطيع أن أوجز فأقول إنه ليس كما كان...

ـ إنه أعمى كارول.. وسيمضي وقتاً طويلاً قبل أن يتكيف...

ـ ليس هذا فقط. يجب أن تشاهديه لتعرفي ما أعني.

ـ لا...

ـ لماذا؟ ألم تقولي إنه لم يتعرف إليك.. ادَّعي أو تظاهري أنك صديقتي وعندئذ لن يعرف هويتك.

ـ لست مرتدية...

ـ لن يعرف أبي ماذا ترتدين.

نعم بالطبع لن يستطيع رؤية الجينز العادي والقميص الحريري الواسع، وشعرها المسترسل على كتفيها... تنهدت:

ـ حسناً.. ولكن ماذا قد أقدمه له مما لم يقدّمه الأطباء؟

كاد قلبها يتوقف وهي تتبع كارول إلى الغرفة الخاصة في المستشفى التي ما زال فيها. كانت الغرفة مليئة بالأزهار العابقة. ولكن نظر سيليا انصب على الرجل الجالس قرب النافذة. كان جامداً في كرسيه، وجهه نحو النافذة، جسده أكثر نحولاً ولكن جروح وجهه التأمت، والقطب أُزيلت، والضمادة التي كانت حول رأسه أزيلت ومع ذلك بدا وجهه أكثر شحوباً ونحولاً.

أدار رأسه حين أحسَّ بهما تدخلان الغرفة وقد اضطرت سيليا إلى كبت شهقة وهي ترى عينيه تنظران إليها مباشرة.

ولكنها عادت فتذكرت أنه لا يراها.

سأل بحدة:

ـ كارول.

ـ أجل أبي.. جلبت لك فاكهة.

أدار رأسه ثانية نحو النافذة:

ـ شكراً لك.

وقفت سيليا قرب الباب، وهي تتمنى لو رفضت المجيء، فمجيئها غلطة، فليس بمقدورها تقديم يد المساعدة لبرودي..

فجأة تصلب جسده.. وأدار وجهه إليها عابساً:

ـ ثمة شخص آخر هنا؟ كارول أيرافقك أحد؟

انتفضت كارول فقالت:

ـ أحضرت صديقة لتراك.

ـ صديقة؟

ـ سيليا.

اتسعت فتحتا أنفه غضباً، والتفّ إطار أبيض حول فمه وصاح ساخطاً:

ـ أنا لست صندوق فرجة لعين!

ـ أبي...

ـ ماذا ترينني يا كارول؟ شخص عجيب في يدك؟ ماذا قلت لصديقتك الصغيرة سيليا «تعالي وتفرجي على أبي.. إنه أعمى»؟

شحب وجه كارول من الصدمة. فصاحت تجهش بالبكاء تعدو إلى خارج الغرفة، ولكنه رغم ذلك تابع صراخه على سيليا:

ـ حسناً؟ ألن تهربي أنت أيضاً؟

أرادت أن تهرب، أن تعدو وراء كارول لتواسيها.. فقد آلمها برودي وهي لا تستأهل غضبه الوحشي. ولكنها قالت له بهدوء:

ـ أنا لا أهرب سيد بادجر. لا أهرب من متسلط ظالم مثلك على أي حال.

ـ ظالم؟ وكيف لي أن أكون ظالماً وأنا لا أرى من أظلم؟

ـ لقد آلمت منذ برهة الفتاة التي تحبك حباً لا يكنّه لك أحد في الدنيا. وهذا ما يجعلك ظالماً عاطفياً سيد بادجر.

ـ رأيك ربما لا يهمني.

ـ ولكنك ستسمعه شئت أم أبيت.

ـ اخرجي من هنا.

ـ لم أنهِ كلامي بعد...

ـ بل أنهيته.

ـ لا.. لم أنهه بعد. كارول قلقة عليك. أما سبب قلقها فأفهمه جيداً... اسمع يا سيدي متى تتوقف عن الإشفاق على نفسك لتبدأ حياتك من جديد؟

ـ ومن أجل من أبدأ؟

ـ من أجل كارول أو من أجل حماتك أو من أجل الجحيم! أنت رجل موهوب...

ـ أوه.. وهل بدأوا باستخدام جراحين مكفوفين هذه الأيام؟ لا أظن هذا.

ـ قد لا يدوم عماك.

ـ وتعتقدين أن عليَّ حتى ذلك الوقت المحافظة على موهبتي..؟ أتودين أن تكوني أول مرضاي؟ أتفعلين هذا؟ أعرف تماماً أي عضو فيك أبتره أولاً.

ـ وأنا أعرفه أيضاً ولكنك لا تستطيع الرؤية..

ـ لا.. لا أستطيع الرؤية وهنا تكمن المشكلة.

وقف مضطرباً، يتعثر بكرسيه فتحركت سيليا بعفوية وأسندته.. ولكنها أحست بتصلب جسده تحت يدها وندمت على تسرعها أمام

غضبه..

صاح بها يدفعها عنه:

ـ ابعدي يديك عني! لا تلمسيني!

ـ أكنت تفضل لو تركتك تقع أرضاً؟

ـ ربما أفضّل ذلك!

ـ سأتذكر هذا في المرة القادمة!

ـ لن يكون هناك مرة أخرى لك! اخرجي من هنا! اخرجي!

وشق طريقه إلى سريره فجلس عليه متهاوياً بوهن.. فصاحت:

ـ برودي...

لكن صوت جوناثان هال قاطعها:

ـ ما الذي يجري هنا.. أسمع صياحاً.

رد عليه برودي حانقاً:

ـ أخرج هذه الفتاة من هنا.

ـ لكن...

شهقت سيليا وهي تقول:

ـ لا تقلق.. أنا خارجة. لكن لو كنت مكان كارول... لقلت لك اذهب إلى الجحيم!

وخرجت من الغرفة تستند إلى الجدار خارجاً وتشنجات بكاء جاف تهز جسدها كله. لكن سرعان ما قطع عليها حالتها البائسة تلك صوت كارول:

ـ ما الذي حدث بعد خروجي؟

ـ فقد والدك أعصابه.. ولم تكن هي المرة الأولى على ما أعتقد.

ـ بل هي المرة الأولى لأنه عادة يجلس هناك دون أن يقول شيئاً

لأيّ كان.

ـ ولكنه قال لي الكثير.

ـ سمعته، ولم أصدق ما سمعت... لم أشاهده قط على هذه الدرجة من سوء الخلق. فليس هذا من طبعه أو خلقه.

ـ ولا من طبعي أنا. لا أذكر أنني فقدت أعصابي من قبل.

ـ ولكنك نجحت، ألا ترين هذا، جدالك معه أخرجه من قوقعته وانغلاقه على نفسه.

ـ ربما يجب أن أذهب الآن كارول... فلديّ مريضة عليّ الاعتناء بها.

ـ ولكن...

ـ آسفة كارول، يجب أن أذهب.. وأتمنى لو يتعافى والدك قريباً.

كانت تعدو وهي خارجة تفكر في أن رؤية برودي ثانية كانت غلطة كبيرة. وهي إحدى الأغلاط العديدة التي ترتكبها مؤخراً.

بعد ظهر أحد الأيام، وصلت كارول تطلب مقابلتها في منزل السيدة سميث...

ـ أحتاج إلى عونك.

سحبت سيليا نفساً عميقاً.

ـ في المرة الأخيرة التي وافقت على مساعدتك قطعني والدك إرباً إرباً.

ـ بالضبط.

ـ بالضبط؟

ـ بعدما فقد أعصابه، تفاءلت وفي ظني أنه سيخرج من قوقعته ليبدأ بالمقاومة. ولكنها بقيت المرة اليتيمة التي تجاوب فيها مع أي

شيء.. إنه يجلس فقط في الكرسي طوال اليوم، وأحياناً طوال الليل، يرد علينا بصوته الكالح الخالي من المشاعر. وكأنه لا يهتم بشيء. وقد ظننت أن حاله ستختلف بعد عودته إلى المنزل...

ـ هل عاد إلى المنزل الآن؟

ـ أجل.. منذ أربعة أيام. وبقي على حاله حتى بتُّ أعجز عن التفاهم معه!

ـ ستتمكنين من ذلك مع الوقت.

هزت رأسها:

ـ ولكن الطبيب على ما يبدو لا يرى اعتقادك هذا، فهو يقول إن أبي يزداد انطواءً على ذاته أكثر فأكثر ويظنه مقبلاً على انهيار عصبي كامل هذا إن لم نحُلْ دون ذلك فعلاً.

ـ ليساعده أخصائي نفسي...

ـ لن يسمح أبي بدخول طبيب إلى المنزل.

ـ وجوناثان هال ألا يستطيع فعل شيء؟

ـ لقد تعب.. إنه صديقٌ طيب. إنما هو عاجز عن إجبار أبي على التجاوب. ولكن شيئاً قلتِهِ في المستشفى دفعني إلى التفكير في أمر ما.

ـ شيئاً قلته؟

ـ قلتِ إنك ممرضة، وإن لك مرضى تعتنين بهم.

ـ أوه.. لا كارول لديّ الآن عملي، ووالدك لا يحتاج إلى ممرضة دائمة.

ـ بل يحتاج.. وثمة ممرضة ترعاه في الوقت الحالي.

ـ حسناً...

ـ إنه يعاملها بالبرود الذي يعامل به الجميع.

قطبت جبينها مفكرة:

ـ لم أكن أعلم أنه بحاجة إلى ممرضة. ألم تقولي إن حالته الصحية جيدة؟

ـ ما زال يتعب بسرعة، وما زال يخضع للمعالجة. وقد رأى الطبيب أن عليه عدم الوصول إلى الحبوب المنومة.

شحب وجه سيليا:

ـ أوَ... لا.. لن أصدق أن والدك يُقدم على شيء كهذا!

ـ وما كنت لأصدق أنا كذلك، لولا قوله شيئاً عن رغبته في الموت.

ـ إنه رد فعل طبيعي...

ـ ليس في والدي ما هو طبيعي.. لقد احتقر ضعف الآخرين واحتقر محاولات الانتحار.. ولكن رغبته في الموت تؤكد لي أنه يعني ما يقول.

تنهدت سيليا:

ـ وماذا تريدين أن أفعل؟ قاومني مرة وقد يرفضني ثانية.

ـ قابليه ثانية وعندئذ نتأكد.

ـ وإن لم يستجب، أتكون تلك النهاية؟

ـ أجل.. أعدك.. إنما إذا تجاوب...؟

ـ سأرافق السيدة سميث في رحلة بحرية الأسبوع القادم...

ـ أوه.. هكذا إذن.. لم أكن أعلم أن رحلة بحرية هي أهم عندك من أبي!

ـ ليس الأمر كما ترين كارول!

ـ هذا ما أراه... أبي بحاجة إليك...

هزت سيليا رأسها:

ـ وكيف لك أن تعرفي أنه يحتاجني.

ـ ولكنك أنت لا ترغبين أيضاً في معرفة ما إذا كان يحتاجك. اسمعي لو عرضت عليك تحمل نفقات رحلة بحرية بعد الانتهاء من العناية بأبي.. فهل تعدلين عن رأيك؟

حبست كلمات الفتاة المهينة أنفاسها في حنجرتها.. فردت ببرود:

ـ سأقابل أباك وعندها أرى ما ستكون عليه ردة فعله، وبعد ذلك أتحدث إلى الطبيب، ومن ثمّ أتخذ قراري.

أشرق وجه كارول:

ـ لا أعرف كيف أشكرك.

ـ لم أعدك بشيء حتى الآن.. كارول... إن كلمتني ثانية بالطريقة التي تكلمت بها منذ قليل ضربتك. فهمت؟

تضرّج وجه كارول حياءً فبدت صغيرة غير واثقة من نفسها:

ـ أنا آسفة ولكنني قد أعيد الكرّة إن كان في عملي هذا إفادة لأبي.

ـ عندي غداً إجازة.

ـ عظيم! جوناثان قادم غداً لمعاينته صباحاً... ويُستحسن أن تتريثي حتى وقت الغداء لمناقشة الأمر معه.

ـ هذا إذا بقيت سالمة!

ضحكت كارول:

ـ لا تقلقي.. سنسحبك من هناك قبل أن يتمادى.

تقدمت لتقبلها بحرارة:

ـ أراك غداً، في الحادية عشرة.

هزت سيليا رأسها:

ـ سأكون هناك.

في اليوم التالي ازداد توترها وذلك حينما دخلت إلى غرفة الاستقبال فوجدت كريستبال إير واقفة برشاقة تستقبلها.

ـ كارول فوق مع طبيب برودي.. أترغبين في قليل من الشاي؟

في تلك اللحظة بالذات دخلت كارول برفقة الطبيب فتهلّل وجهها رضى.

ـ سرّني قدومك.

ـ وماذا عن والدك؟

تنهدت:

ـ ما زال على حاله.

ابتسم جوناثان لها:

ـ ما أسعدني برؤيتك ثانية آنسة هالام... ولكنني كنت أتمنى لو قابلتك في ظروف أحسن من هذه.

قالت كارول:

ـ سأرافقك إلى غرفته... أما جدتي فستقوم بواجب الضيافة دكتور. لن أتأخر.

وقفتا خارج غرفته فسألتها سيليا:

ـ لماذا ليس والدك معكم تحت؟ أيلازم غرفته طوال الوقت؟

ـ إنه يرفض مغادرة غرفته.

ـ لماذا؟

ـ لا يقول السبب، إنه يرفض فقط. تعرفين أبي..

ـ أيأكل في غرفته أيضاً؟

ـ لا ينزل إلى الصالة أبداً.

أخذت سيليا نفساً عميقاً ثم عقدت العزم على مواجهة برودي

حالاً:

ـ أيعلم شيئاً عن قدومي؟

ضحكت كارول ساخرة:

ـ أتمزحين؟ كان سيرميني بشيء لا محالة!

ـ سنرى.. وإذا سمعتني أصرخ...

ضحكت:

ـ أركض لنجدتك.. حظاً سعيداً!

سمعت كارول تقهقه من وراءها فساعدها ذلك على الدخول إلى الغرفة بهدوء. كان الرجل جالساً أمام النافذة، رافعاً رأسه إلى السماء. وكان على عينيه نظارة سوداء لم تعجبها لأنها أحست أن جزءاً منه مختبىء خلفها.

التفت إليها حين سمع صوت الباب يوصد فسأل:

ـ كاثرين.

إن كاثرين هي تلك الممرضة على ما يبدو. فردت:

ـ لا.

توتر وجهه.

ـ من.. إذن؟

سارت إلى الغرفة ببطء فتحرك ثوبها حول قدّها الرشيق بنعومة... وقفت إلى جانبه قرب النافذة:

ـ إنه يوم جميل. إن البستاني الذي يعمل لديك ماهر حقاً... فقد استطاع غرس أزهار جميلة وحافظ على مظهرها وكأنها برّية. أوه.. وهناك كلب في الحديقة. أهو لك؟

ردَّ بنبرة وحشية:

ـ ماذا تفعلين هنا؟ هل جئت تطلبين مني ثانية التوقف عن

الشفقة على نفسي؟ والبدء بحياة جديدة؟

إذن فهو يتذكرها.

ـ هل عرفت صوتي؟

ـ وكيف لا أتعرّف إلى ذلك الصوت القاسي الذي طلب مني البدء بحياة جديدة وليس هناك من قد أحيا من أجله.

ـ لن تجد ما تحيا من أجله وأنت قاعد في الكرسي كئيباً طوال النهار.. لا.

سأل بمرارة:

ـ وماذا عليّ أن أفعل؟ أقرأ الكتب أم أشاهد التلفزيون؟

ـ ثمة أمور عديدة يستطيع القيام بها أعـ...

ـ قولي أعمى... ولكن سمي لي شيئاً؟

ـ قم بنزهات... اجلس في الحديقة، انطلق بالسيارة، كُلْ مع سائر أفراد العائلة. أليست هذه بأعمال كثيرة بالنسبة لك في البداية!

ـ لا أظن هذا. لا سبب يدفعني إلى السير في حديقة لا أرى منها شيئاً وهذا ينطبق أيضاً على الجلوس فيها... أما الخروج في السيارة فأمقته لأنني أرفض أن يقود السيارة أحد غيري.. أما تناول الطعام مع العائلة فكارثة... ترى ماذا سيحدث عندما أسكب الطعام على قميصي أو أوقع كوب الماء على شخص آخر...؟ هل ستضحكين على هذا أنسة هالام؟ لا أظن.. أما الكلب، أجل، فهو لي.. ولكنه لسوء الحظ غير مدرب على قيادة العميان.. هل هناك أفكار أخرى؟

ـ لديّ منها الكثير... لا يمكنك البقاء في غرفتك ما تبقى من عمرك.

ـ ولماذا لا يمكنني؟

ـ لأنك.. لا تستطيع... فعماك ليس دائماً ربما.

ـ أرفض العيش على وعود كاذبة..

ـ لكنك تملك دماغاً نشيطاً جداً، فكيف تجلس طوال حياتك في كرسي؟ أنت لا تستطيع ذلك؟

ـ صحيح؟

أغضبتها سخريته:

ـ أجل.

ـ وكيف لك أن تعرفي آنسة هالام؟ أنت لا تعرفين حتى... لم نلتقِ إلا منذ أسبوع.. أنت صديقة ابنتي ليس إلا... لذا لن أقبل هذه النصيحة منك.

أدار وجهه وكأنه بذلك أشار إليها بالانصراف.

إنه حقاً لم يعرفها حتى الآن، وكلماته هذه خير دليل.

قالت له وهي تسترد ثقتها بنفسها:

ـ أنت مخطىء سيد بادجر. أنا أكثر من صديقة لكارول أنا ممرضة أيضاً.

ـ لا... لست ممرضة!

ـ بل أنا كذلك. وبدءاً من صباح الاثنين سيكون لديك «هذا الصوت القاسي» ليقول لك ليل نهار أن تبدأ بالعيش.

وقف برودي فبدا وكأنه يتنقل بثقة في غرفته، فقد سارع بخطوات ثابتة إلى الباب ففتحه ثم تراجع ولكنها لم تتحرك لتخرج.. فبدأت عندئذٍ معركة إرادات بينهما، فمن سيتراجع أولاً... ثم قال لها:

ـ أريدك أن تخرجي.

ـ أعرف.

ـ حسناً؟

ـ لم ننهِ نقاشنا المتعلق بوظيفتي الجديدة كممرضة لك سيد بادجر.

ـ أنت مخطئة آنسة هالام.. لا وظيفة نفتح نقاشاً عليها.

ـ لقد وظّفتني ابنتك...

ـ ابنتي لا تدير هذا المنزل آنسة هالام بل أنا من أديره.

ـ حقاً؟ ولكنني لا أراك تديره بل أراك مختبئاً هنا في غرفتك.

صفق برودي الباب فأغلقه بعنف، وصاح:

ـ ماذا قلت؟

ـ ما تزال كارول صغيرة على تحمل مسؤولية كهذه، ولكنني أراها تقوم بعمل رائع، وقد اختارتني لهذه المهمة وأنا قبلت. اسمع سأستمر بالعمل لدى ابنتك حتى تتمكن أنت من طردي بالقوة.

شحب لون برودي شحوباً شديداً واحت أنفاسه تتقطع غضباً.. ولكنه صاح بصوت ضعيف:

ـ اخرجي من هنا.. اذهبي.. فقط.

اتجهت هذه المرة إلى الباب وهي تعلم أنه تلقى ما يكفيه من تأنيب.. قالت بخفة:

ـ سأكون معك صباح الاثنين سيد بادجر.

لم يرد عليها، بل انطوى على نفسه مهزوماً.. وخرجت سيليا وهناك أطلقت لدموعها العنان... فقد كان إيلام برودي أصعب مهمة قامت بها في حياتها.. ولكن فعلتها هذا ارتدت عليها ألماً أيضاً.

كانت كارول تجلس في أعلى الدرج، فوقفت حين شاهدت سيليا تبكي، وفتحت ذراعيها دون كلام لتحتضنها مواسية. وقالت

سيليا تشهق بالبكاء:

ـ لقد آلمت نفسي بمقدار ما آلمته... وكنت مستعدة للتخلي عن كل شيء في الدنيا في سبيل أن أعقد ذراعي حول عنقه لأبكي وأبكي.

لم تستطع سيليا تجاهل الرجاء في عينيها الرماديتين الشبيهتين بعيني برودي.

ـ قلتِ لأبي إنك ستكونين هنا صباح الاثنين.. فإن لم تحضري ظنَّ أنه ريح الجولة وأخافك.

تنهدت بثقل:

ـ أجل.. مع أن للسيد هال القول الأخير.

ـ سيوافق بكل تأكيد.

وسيليا تشعر أيضاً بأنه سيوافق.

* * *

٤ ـ سيّدها الوحيد

أشرق يوم الاثنين مشرقاً برّاقاً، فسعت سيليا إلى تركيز أفكارها على جمال هذا اليوم، وذلك عندما كانت تتناول الفطور مع كارول وحدها، فكريستبال إير طلبت الفطور إلى غرفتها وكانت العجوز قد اختفت عن الأنظار منذ وصول سيليا إلى المنزل في الليل الفائت.

أصرَّت سيليا على عودة كارول إلى كليتها بدءاً من اليوم.. فعلى حياتها أن تعود إلى فلكها الطبيعي.

ـ وأضيفي أن والدك حينما يرى نفسه وحيداً معي في المنزل سيتقبل وجودي أكثر وتتضاءل رغبته في التخلص مني.

ـ لا أعتمد على هذا.. صحيح أنه لم يعرف أنك وصلت، إلا أنه في مزاج رهيب منذ ليلة أمس.

ابتسمت سيليا:

ـ ربما عرف أنني وصلت.

ـ لا أظن هذا.. من المستحسن ذهابي الآن. هل أنت واثقة أنك ستكونين على ما يرام؟

ـ كل الثقة. كان عندي مرضى أسوأ حالاً منه.

ترددت سيليا أمام غرفة برودي، تتساءل عن نوع الاستقبال الذي ستتلقاه. فإن كان ما قالته كارول عن مزاجه صحيحاً فهذا يعني أنه لن يفرش لها الأرض ترحيباً.

حين دخلت بعد طرقة خفيفة، كان خارج فراشه مرتدياً ثيابه، جالساً أمام النافذة، ولكنه لم يرفع وجهه إليها وكأنه كان يعرف من دخل عليه حتى قبل دخولها.

قالت تهاجمه ما إن رأت النظارة:

ـ لمَ تضع هذه النظارة وعيناك لا تشوبهما شائبة؟

بدلاً من الغضب التي أملت أن تثيره، التوى فمه بابتسامة ساخرة:

ـ ولماذا ترتدين بزّة الممرضات الرسمية وأنت تعلمين أنني لا أراك؟

ـ لكن هذا لا يجيب عن سؤالي.

ـ أضعها لأنني أريد أن أضعها.

ـ هذا ليس رداً أبداً!

ـ وهو الرد الوحيد الذي عندي... وماذا عنك؟ أنت لم تجيبي عن سؤالي بخصوص بزّتك الرسمية.

ـ أنا.. ممرضة..

ـ سبق أن قلت إنك ممرضتي... وأنا أستحسن ألا ترتدي بزّة التمريض عندما تكونين معي... اخلعيها.

تصاعد اللون الأحمر إلى وجنتيها:

ـ عفواً؟

تشدّق ساخراً:

ـ عزيزتي الآنسة هالام... ماذا أعني برأيك؟ ألا تقيمين في المنزل؟

ـ أجل.

ـ إذن توجهي إلى غرفتك وارتدي شيئاً آخر علماً أنك قادرة على

خلع ما ترتدين دون أن أستفيد من هذا شيئاً! فقد حُرِمتُ حتى من النظر إلى امرأة جميلة.

ـ أنا لست جميلة.

ـ وكيف لي أن أعرف؟ قد يكون وزنك مئة كيلوغرام أو تشبهين «غوريلا» فكيف أعرف؟

ابتسمت:

ـ لست على هذا القدر من البشاعة... كما إنك غير مضطر لرؤية جمال المرأة ما دمت قادراً على الإحساس به.

ـ أوه.. أجل.. وهل ستحب المرأة أن تجد يدي طريقاً إلى جسمها. أترغبين معي هذا آنسة هالام؟

عضت على شفتها غير واثقة من قدرتها على تحمل حديث حميم كهذا. فقال معلقاً بخشونة:

ـ عرفت أنك لن ترغبي.

أخذت نفساً عميقاً:

ـ سأعقد معك اتفاقاً.

تغيرت أسارير وجهه.

ـ أي نوع من الاتفاق؟

ـ تخلع النظارة السوداء، لأنها ليست ضرورية خاصة وأن لك عينين ساحرتين، وعندئذ أسمح لك بالتعرف إليّ لمساً... اتفقنا؟

فكّر برودي برهة، ثم هز رأسه ببطء:

ـ اتفقنا. مع إنني قد أصاب بخيبة أمل.

تقدمت تجثو أمامه وسألت:

ـ خيبة أمل؟

ابتسم:

ـ لك صوت مثير آنسة هالام، لذا أخشى أن أكتشف أنك مختلفة عما أتصور.

أمسكت يديه مبتسمة، وهما يدان حساستان ما زالتا تحملان آثار الجروح، فوضعتهما على جانبي وجهها. لأن من الطبيعي أن يرغب في التعرف إلى وجه الفتاة التي يسمع صوتها ولكن ليتها.. ليتها فقط لا تشعر بالتوتر.

لمس شعرها أولاً:

ـ همم... ناعم الملمس، متجعد.. ما لونه؟

ـ أحمر ذهبي، تقريباً.

راحت أطراف أصابعه تمر على وجهها.. فاقشعرت بشرتها لملمسه... كان مستغرقاً في مهمته، حتى تمنت ألا يشعر باضطرابها.. وتمتم:

ـ حاجبان جميلا المظهر.. أهداب طويلة حريرية... ما لون عينيك؟

ـ عيناي خضراوان.

ـ خضراوان قاتمتان أم...

ـ قاتمتان.

ـ أنف مرتفع.. أهناك نمش؟

ـ القليل منه.

أخذ توترها يزداد قوة كلما أمعنت يداه في لمس كل جزء من وجهها.. وتابع:

ـ وجنتان مرتفعتان.. مجوفتان.. إذن أنت لست سمينة.

ـ خمسون كيلو غراماً أما طولي فمئة واثنان وسبعون سنتمتراً.

ـ أنت نحيلة بالنسبة لطولك. ما عدت أستغرب أن يكون خداك

أجوفين! لك ثغر جميل.. همم، يغري بتقبيله.

احتاجت إلى كل ما تملك من قوة إرادة لئلا تسحب نفسها بعيداً عنه... ولكنها كانت تعلم من التواء فمه أنه يقصد إثارتها، فبقيت صامتة تبذل جهداً كبيراً.

تحركت يداه فجأة إلى ذقنها وقال متمتماً:

ـ ذقن صلب... كنت أعلم هذا.

رفع يديه إلى أذنيها، ثم هز رأسه وأنزلهما إلى جنبيه:

ـ هل انتهيت؟

هز رأسه:

ـ عليَّ الآن أن أرى جسدك بيديّ.

شهقت:

ـ لا!

قست تعابير وجهه:

ـ هذا هو الاتفاق سيليا.

ـ لا...

ـ بلى.. سألتك إن كنت تقبلين أن تجد يداي إليك طريقاً وقد وافقت على ذلك إن قبلت أن أنزع النظارة التي لا تعجبك.

شهقت:

ـ عنيت وجهي! لا جسدي!

ـ أنت تتراجعين عن الاتفاق إذن؟

ـ لا أتراجع بل أقول إن الاتفاق ليس كما تصوره أنت.

ـ أمر مؤسف.. مع أن نحولك لا يغريني أبداً بالاقتراب منك.

كانت الإهانة شديدة الوقع عليها، فقد تذكرت سيليا زوجته الشهية التي فضلها عليها منذ ست سنوات.

صاح بها وهي لا تزال جاثية أمامه.

ـ حسناً؟

فوقفت تنظر إلى المرارة البارزة في وجهه.. ما أشد ما تكره هاتين النظارتين! ولكن أتكرههما إلى درجة أن تتحمل يديه على جسدها؟ وجدت في هذه الفكرة ما يبعث على التوتر ومع ذلك صاحت به:

ـ حسناً.. لك ذلك.

نبض عرق في فكه، ولكنه لم يتحرك، بل قال يصرف النظر عن الأمر ببرود:

ـ لست يائساً إلى هذا الحد.

ثم هبَّ واقفاً ولكن سيليا لم تكن قد تحركت، فاصطدم بها حتى كاد يوقعها ولكن يديه سرعان ما أمسكتا بها.

ـ أنا آسف.

ثم ما لبث أن ابتعد عنها بحدة مادّاً النظارة إليها.

ـ هاك.. خذي هذه النظارة اللعينة إن كانت تهمك إلى هذه الدرجة.

تناولتها منه قائلة:

ـ سأسعى إلى تبديل ملابسي لأنني أفكر في القيام بنزهة في الحديقة...

ـ لا..

ـ لا؟

ـ لقد سبق أن قلت لك إن لا فائدة منها.

ردت بعناد مماثل:

ـ بل هناك فائدة.. فالكلب بوبي الذي رأيته البارحة لا يأكل

كما يجب. أحسبه مشتاقاً إليك.

ـ الكلاب مخلوقات متقلبة، كالنساء تماماً. سرعان ما ينقلب حبها إلى شخص آخر.

ـ ولكنه ليس مضطراً للبحث عن آخر وأنت ما تزال أمامه.

بدا غاضباً حقاً.

ـ لا أريد الكلب هنا كما لا أريد النزول إلى الحديقة! بالله عليك... دعيني وشأني..!

ـ لا أستطيع.. هل حلقت لحيتك هذا الصباح؟

علت وجهه تقطيبة:

ـ وما شأن هذا ببوبي؟

ـ لا شيء.. كنت أسأل.

ـ حسناً.. لا تسألي فلا أحتاج مربية أطفال. تدربت على القيام بما يلزمني في الحمام. لقد سبق أن مررت بهذا كله في المستشفى.. لماذا اهتمامك بحلاقة لحيتي أو عدمها؟

ثم راح يلمس بشرة وجهه الناعمة.. فقالت:

ـ إنها جيدة.. تساءلت فقط عما إذا كان باستطاعتك القيام بأشياء معقدة كالاغتسال أو الحلاقة أو ارتداء الملابس. لماذا ترفض القيام بنزهة في الحديقة؟

ـ لأنني أرفض السير معتمداً على عصا بيضاء..!

لماذا لم تفكر في هذا السبب من قبل؟ فلبرودي كبرياء يمنعه من عرض عجزه أمام الناس... لقد حفظ ما يحيط به في غرفته وحمامه.. ولكن الحديقة ما زالت مجهولة بالنسبة له، محفوفة بأخطار غير مرئية. فسارعت تقول له بمرح:

ـ لديّ ما هو أفضل بكثير من عصا بيضاء.

ـ أوه.. صحيح؟

ـ أجل.. جرّب هذه.

وضعت يدها بيده، فانتفض:

ـ أو هذه إذا شئت.

ثم وضعت يدها في ذراعه.

ـ هذا يسهل عليّ إعطاءك التعليمات التي تحتاج إليها.

ـ لا!

ـ لماذا؟

ـ لأنني سعيد هنا.

ـ ربما. ولكنني لست سعيدة! فلن أمضي الصيف في هذه الغرفة الخانقة وهناك حديقة جميلة تمد يديها مرحبة.

أكملت هذه الكلمات ثم تحركت مبتعدة عنه:

ـ تهربين آنسة هالام؟

ـ أبداً.. إنما بوبي على ما أظن سيقدّر صحبتي له أكثر منك.

رد ساخراً:

ـ دون شك.

نظرت إليه نظرة إحباط قبل أن تترك الغرفة خافقة القلب... فقد يظن أنه دفعها إلى الهروب.. ولكنها لم تنته منه بعد!

بدّلت ملابسها ثم قصدت الحديقة، فسارع بوبي لملاقاتها.. فقالت له بصوت مرتفع وهي تدرك أن الجالس جامداً أمام النافذة سيسمعها.

ـ سيدك المتقلب المزاج ما زال جالساً مقطب الجبين في غرفته.. إذن لم يبقَ سوانا... فلنبحث عن قطعة تلعب بها... هه؟

قضت ساعة كاملة مع الكلب تلاعبه وهي تحاول بذلك أن يعرف برودي أنهما يتمتعان بوقت عظيم.. ولكن عندما أزف وقت عودتها إلى الداخل شعرت بالندم.

توجهت إلى غرفتها الملاصقة لغرفة برودي تريد الاغتسال وترتيب نفسها قبل الغداء. وعندما هيأت نفسها توجهت إلى المطبخ حيث كانت مدبرة المنزل تقدم الطعام. قالت لها:

ـ سأحمل طعام السيد بادجر مع طعامي.

بدا التردد على الآنسة ويل:

ـ اعتدت أن أحمل له الطعام على صينية.

ـ سأحمل طعامنا معاً على صينية واحدة.

ـ لا أحسبه يرضى بذلك.

ـ وهذا ما أعتقده أنا أيضاً.

بدت الحيرة على وجه مدبرة المنزل.

ـ ألا يقلقك هذا؟

ـ أبداً.

ـ حسناً. ولكن لا تقولي إنني لم أحذرك.

حملت سيليا الصينية ضاحكة ثم توجهت إلى غرفة برودي فقرعت الباب بقدمها.

ـ ادخل.

صاحت ترد عليه:

ـ لا أستطيع!

ـ ما الذي يمنعك؟

سمعته يتمتم ثم فتح الباب. مرت به تحمل الصينية سائلة عن المكان الذي يفضل أن يتناول طعامه فيه، فقال لها:

ـ ظننتك ممرضة، لا ساقية في مطعم.

ـ لن أجادلك الآن ولن أسمح لك بإفساد شهيتي.. فلحم الغنم يبدو لي لذيذاً.

ـ إذن لن تموتي جوعاً.. صحيح؟

جلست براحة على مقعد يقع قبالة مقعده:

ـ ألن تجلس؟

رفع رأسه بعجرفة:

ـ حين تخرجين.

ـ أوه.. ولكنني لن أخرج.

ـ لا أريد مراقباً يراقبني أثناء تناول الطعام!

ـ لن أراقبك بل سأكون مشغولة بطعامي..

التفت إليها بحدّة:

ـ تتناولين طعامك؟ لن تأكلي هنا!

ـ لكنني بدأت.. همم.. كنت على حق. اللحم لذيذ. لماذا لا تتذوقه؟ أنا واثقة أنك...

ـ لا تعامليني كطفل.

ـ إذن توقف عن التصرف كطفل! هل في تناول الطعام ما يضرك؟ أكره أن آكل وحيدة.

ـ كريستبال...

ـ تتغدى عند أصدقاء.

تمتم:

ـ هذا تصرف مثالي منها.

لم يكن يستطيع مسامحة حماته على تجاهلها له، فهي لا تزوره على الرغم من أنها تعيش معه تحت سقف واحد...

توسلت إليه سيليا بصوت ناعم:

ـ رجاء اجلس برودي.. سيبرد الطعام.

نظر إليها نظرة غاضبة جعلت عينيه تنصبّان عليها حتى استصعبت تصديق أن هاتين العينين النافذتين لا تريانها.. قال بحدة:

ـ ألن تقطّعي طعامي؟

ـ أتريد مني ذلك؟

ـ لا!

كان في الواقع يتناول طعامه بطريقة رائعة! ولكنها لم تعلّق على هذا لأنها تعرف كرهه لمن يراقبه.

بعد تنظيف الطاولة قالت:

ـ سأحضر القهوة.

أدار ظهره إليها:

ـ سيليا...

ـ نعم؟

ـ شكراً لك.. يُستحسن أن أعرف ما أتناول قبل أن أقدم على الأكل، الآنسة ويل تترك الصينية عادة دون تفاصيل هامة. وقد حدث مرة أن تناولت الحساء مع حلوى التفاح.

ـ أوه.. برودي!

ـ احضري القهوة.

حين عادت تحمل صينية القهوة كانت لحظة التقارب قد تلاشت، إذ رجع برودي إلى وجومه... ولكن ما حدث من تقارب قبل قليل كان بداية جيدة. لذا لن تدفع الأمور قبل الأوان، فكان أن عرضت عليه قراءة الصحيفة. فصرف النظر عن الاقتراح قائلاً:

ـ أستمع إلى الراديو.

ـ ولكن الراديو لا يذكر إلا العناوين الرئيسية وهناك أمر آخر يتعلق بي. فأنا لم أقرأ الصحيفة اليوم.

ـ تريدين قراءتها أثناء دوام العمل؟

ـ ولمَ لا؟ لاعبت الكلب أثناء الدوام.

التوى فمه ساخراً:

ـ نعم.. عندما كان «سيده المتقلب المزاج مقطب الجبين في غرفته».

بدا لها ما فعلته طفولياً فقالت:

ـ كان بوبي يفضل أن تلاعبه أنت.

ـ لقد تمتع بصحبتك كثيراً. كنت تبدين مرحة.

ـ صحيح.. والآن هل أقرأ الصحيفة؟

رد ساخراً:

ـ هيا اقرئي. أكره أن أفسد عليك يومك الرائع.

تركها في البدء تقرأ بلا تعليق ثم لم يلبث أن راح يسألها عن نقاط معينة، فعلمت أنه سيصغي إليها باهتمام.. أخيراً وضعت الجريدة من يدها.

ـ هذا يكفي الآن.. أحتاج إلى فنجان شاي، ماذا عنك؟

ـ آسف.. لم أفكر في الأمر... اذهبي وتناولي الشاي.

ـ سأحضر الشاي إلى هنا...

ـ أفضّل أن أكون على انفراد عندما أحتسي الشاي وعندما أتناول العشاء أيضاً.

ـ طبعاً.. ولكنني سأحمله لك بنفسي. هل من مانع؟ وعندئذ أقول لك ما هو على الأقل.

قال لها: "حسن جداً" ثم أشاح عنها وجهه.

عندما وصلت سيليا أسفل الدرج كانت كارول قد عادت من كليتها. فسألتها:

ـ أكل شيء على ما يرام؟

ـ نعم... لماذا لا تصعدين إليه؟ فسيكون سعيداً برؤيتك.

ـ أكان.. على ما يرام؟

ـ حسناً.. لم يرمني بشيء. كيف كان يومك في الكلية؟

ردت وهي ترتقي الدرج:

ـ رائع..

ـ اهتمي بكليتك وانسي القلق على والدك... بالمناسبة ماذا تدرسين؟

ضحكت كارول:

ـ احزري!

ـ لا تقولي الطب؟

ـ وما سواه.

ـ حقاً.. أراك فيما بعد.

وقفت كارول أمام باب غرفة أبيها تهمس:

ـ هل الدخول إليه آمِن؟

ـ إنه آمَنُ من البقاء خارجاً!

ضحكت كارول وهي تدخل، فابتسمت سيليا ثم توجهت إلى المطبخ لتقول لمدبرة المنزل ان برودي وكارول يطلبان الشاي. أما هي فتريده في غرفة الجلوس.

بدت كارول هانئة البال تضيء وجهها ابتسامة مشرقة.

ـ لقد جلس يحادثني.. مهتماً بما أقوله.. فعلاً.

لكن هذا لا يدل على نجاحها. . فقد يطلب منها غداً الرحيل وقد يشجعها على التنفيذ تعليقات خبيثة أخرى تطلقها كريستبال.

تلك الليلة عندما حملت إليه صينية الطعام وجدته حيث كان في النهار جالساً أمام النافذة التي أحدق بها الظلام. وهذا ما ذكّرها بأنه لا يستطيع إلا رؤية الظلام الذي يلفه ببرائنه.

ـ أحضرت لي العشاء، وهذا يعني أن الظلام قد هبط على الكون خارجاً. أليس كذلك سيليا؟

ـ كيف عرفت أنني القادمة؟

بدأت ترتب له الطعام على المائدة. فهز كتفيه:

ـ من عطرك.

قطبت جبينها:

ـ ولكنه عطر جديد. لم أضع مثله من قبل.

دنا منها حتى كادت أنفاسه تحرك شعرها:

ـ قلت لك عطرك سيليا. . . عطر جسدك كعطر الأرض والقمر والسماء. . . كأفروديت تماماً. .

ـ أوه. . .

ـ أليس عندك أكثر من هذه الآهة؟

ولكنها عوضاً عن الرد راحت تصف له عشاءه، متجنبة النظر إليه. . فما برودي إلا مريض تعتني به. . ولكنه تمتم رداً على سؤاله:

ـ جبانة.

ردت بعنف:

ـ لست جبانة. . إنما أعتقد أن هذا النوع من الحديث قد يفضي إلى أية نتيجة.

ـ أنت على حق سيليا. . . فلن يجدي الحديث نفعاً ما دمت أؤمن أن للأفعال صوتاً يعلو صوت الكلمات.

وقبل أن تعرف نواياه شدها إلى فوق يضمها إليه بلهفة. . أرادت أن تقاوم بل حاولت المقاومة، ولكن جسدها خانها. . . فاندست في صدره متأوهة وكأنها لم تعرف لها سيداً غيره. تأوه هو أيضاً:

ـ ماذا ترتدين. . صفي ثوبك؟

ـ إنه ثوب أسود. . .

ـ أله ياقة مقفلة؟

راحت أصابعه تعبث بالزر المستلقي قرب عنقها:

ـ أحب ملمس بشرتك. ولكنني أعرف أن جمال شعرك البراق يتوهج متألقاً أمام اسوداد الثوب.

ـ وكيف عرفت؟. . .

ـ لقد وصفت لونه أمامي. . . أتذكرين؟

عرفت سيليا سبب تحركاته، وندمت عليها. . كانت تعرف أنه في هذه اللحظات نسي عماه الذي ما عاد يهمه في هذا الوقت فقد كان يداعبها بيديه لا بعينيه.

تصرف برودي بوحشية بغية إثارتها ومعاقبتها، وقد كادت فعلاً تشهق ألماً. ولكن المشكلة أنها كانت تحس بالسعادة بين يديه رغم هذا الألم. . . فقد مضى زمن طويل منذ أن ضمها على هذا النحو. . . زمن طويل. . طويل.

فجأة أبعدها عنه بفظاظة وقد تحجرت عيناه قسوة والتوى فمه ازدراء حتى حسبته يراها.

قال لها وهو يمرّر أصابعه في شعره الكثّ:

ـ لقد استطعت لمسك أخيراً.

ابتلعت لعابها بصعوبة:

ـ برودي... أنا...

ـ ما أغرب الأمر! لقد شعرت بأنك مألوفة.

يستحيل.. يستحيل أن يتذكرها! لقد مضى ست سنوات، وقد تغيرت، نعم لقد باتت أنضج... يا الله... إن لم يثر فيه اسمها الذكريات فكيف لجسدها أن يذكره بها.

ناداها عابساً:

ـ سيليا؟

ـ ما زلت هنا.

ـ أعرف.. أظنني برهنت أن كل حواسي ما زالت تعمل بشكل طبيعي.

احمرّ وجهها وتلعثمت حياء وهي ترد:

ـ صحيح.. أعني.. لقد برهنت.. والآن يجب أن أنزل لتناول العشاء.. سيبرد طعامك، بل برد طعامك.. سأحمل إليك صينية أخرى.

ـ يا للغرابة، لم أعد جائعاً! لقد اكتفيت.

كانت أنفاسها مقطوعة في حلقها أمام كلماته المهينة. فردت باشمئزاز:

ـ إذن، من السهل إرضاؤك سيد بادجر، لأنني لم أكتفِ بعد وأستطيع أن أجد، إن تركت هذا السجن، من يساعدني على الاكتفاء... عمت مساءً سيد بادجر...

ـ أيتها الـ....

استطاعت، قبل أن تقبض عليها يداه، الفرار إلى خارج الغرفة، فقد بدا لها مجرماً يرغب في وضع يديه على عنقها لخنقها.

ترى أما زال برودي في عقله الباطني يذكرها؟ ألهذا أحسّ بأنه عانقها واحتواها بين ذراعيه على هذا النحو من قبل؟ هل تذكّرها؟ لو تذكرها حقاً لوجب عليها الرحيل... نعم.. الرحيل. فمنذ ست سنوات أحبت برودي ولكنه اختار زوجته ورفضها... وإن ثابرت على عملها هذا علم أنها ما تزال تكن له ذاك الحب...

الليلة، عندما كان يعانقها، أيقنت أنها ما تزال تحب برودي بادجر!

٥ ـ الكلمات لا تقتل

كان لسان كريستبال إير خلال العشاء أكثر حدة ولذاعة، أما كارول فكانت تتكلم بسرور وسعادة غير مدركة للجو المشحون، فقد شعرت بالراحة لأن سيليا ترعى أباها ولكن سيليا ودّت لو يكون عندها الثقة نفسها، فلم تكن تعرف كيف تواجه برودي على أساس مهنيّ بحت بعدما جرى بينهما.

ظهرت مدبرة المنزل بباب غرفة الجلوس أثناء احتساء القهوة، تقول مبتسمة:

ـ لك اتصال آنسة هالام.

لحقت سيليا بمدبرة المنزل إلى حيث الهاتف.

ـ آنسة هالام؟

كان المتكلم رجلاً.

ـ أجل.

ـ أنا جوناثان هال سيليا... هل أقدر على مناداتك سيليا؟

ـ أوه.. طبعاً.. حرت في هوية المتصل.

ـ قطعت عليك عشاءك؟

ـ أبداً. لقد أنهيته منذ برهة.

ـ وأنا كذلك.. وهذا أفضل.. لأنني.. ما أحاول قوله.. إنني أحب مقابلتك الليلة.

ـ أوه.. لكنني...

ـ علينا التحدث عن مشكلة برودي.

ـ طبعاً.. أين نلتقي؟

ـ سأترك المستشفى حالاً وأوافيك في منزل آل بادجر بعد عشرين دقيقة.. حسناً؟

ـ عظيم.

ـ كيف تشعرين بعد يومك الأول؟

ـ كما تتوقع تماماً.. مجهدة.

ضحك قبل أن يقفل السماعة.. كانت سيليا لا تزال جالسة في المقعد حين نزلت الآنسة ويل تحمل صينية عشاء برودي. فسألتها:

ـ كيف حاله؟

ـ ليس جيداً. سأل عنك.

ـ كنت سأصعد إليه.

ارتقت السلالم ببطء غير تائقة إلى مواجهته، لكنها لم تعد سيليا هالام الخجول، بل أصبحت ممرضة ناضجة ذات خبرة. لذا قررت معاملة برودي كما تعامل أي مريض آخر.

ولكن المنظر الذي واجهها في غرفته أبعدَ عنها تصميمها وعزمها هذا.. فقد كان برودي خارجاً منذ برهة من الحمام مبتلّ الشعر، مرتدياً بنطلون بيجاما فقط.. توقف فجأة عندما شعر بها فرفع رأسه.

ـ من هنا؟

رطبت شفتيها استعداداً للرد ولكنها وجدت صعوبة.. فقال ساخراً:

ـ سيليا؟ ادخلي.. بالله عليك! ما كنت أريد أن تعود الآنسة

ويل فتُصدم.

ـ وأنا؟ أتراني لا أُصدم؟

ـ أشك في هذا، فأنا لست أول رجل تشاهدينه هكذا.

ـ لا.. لقد اعتنيت برجال كثر في السنوات التي عملت فيها ممرضة.

ـ لم أكن أشير إلى التمريض.

وجلس على حافة السرير، ثم سألها وقد شعر بها تتحرك.

ـ إلى أين تذهبين؟

ـ إلى الحمام. حان وقت الدواء.. أترغب في أقراص منومة أيضاً؟

استلقى فوق أغطية السرير:

ـ أجل.. وما غير النوم قد أفعل؟

حين عادت إليه كانت عيناه مغمضتين ولكنه سرعان ما جلس لتناول كوب الماء منها، رامياً الحبوب في حلقه مع قليل من الماء.

ـ ظننتك خارجة؟

ـ أنا خارجة فعلاً.

ـ إلى أين؟

أرعبتها نبرته المتعجرفة:

ـ لم أتباحث مع كارول تفاصيل عملي... ولكنها بالتأكيد ستمنحني حرية التصرف مساءً.

ـ بكلمات أخرى: ليس من شأني أن أسألك عن المكان الذي تقصدينه.

ـ بالضبط.

ـ سيليا...

ـ أتريد شيئاً قبل خروجي؟

أشاح وجهه عنها وقال ببرود:

ـ أحتاج أشياء كثيرة. ولكنني لن أطلب أياً منها.

دفعتها نبرته المهزومة إلى العبوس:

ـ لا أفهم...

ـ ولن تفهمي. بل لماذا تفهمين؟.. من هو.. سيليا؟

ـ هو...؟

ـ الرجل الذي سيخفف عنك الإحباط الذي سببته لك.

احمرّ وجهها لأنها تذكرت ذاك الادّعاء الذي تفوهت به حين أغضبها وأفقدها أعصابها...

ـ أنا لن...

ـ من هو سيليا؟...

ـ إنه جوناثان... سأخرج مع جوناثان هال؟

ـ مساعدي؟

ـ أجل.

ـ فهمت.. أو على الأقل أظنني فهمت.. هل تتورطين عادة مع كل طبيب مسؤول عن حالة مريضك؟

إهاناته تجرحها فعلاً. وعليها الابتعاد عنه حالاً ولو لبضع ساعات.. ولكنها لن تلوم إلا نفسها على هذا الوضع، فنفور برودي منها جزء من العلاج الذي راح يحطّمها هي شيئاً فشيئاً.

ولكنها ردت ببرود:

ـ إذا اقتضت الظروف ذلك...

ـ أي إذا كان بهي الطلعة ووسيماً.

ـ أجل.. هذا بالضبط ما أعنيه!

تحركت يداه لتطبقا على معصمها:

ـ وهل تشاركين الأطباء حياتهم عادة؟

انتزعت سيليا يدها من قبضته متوردة الخدين تردّ بغضب:

ـ إذا أعجبوني.. ألا تعلم أن المشهور عن الممرضات أنهن يشاركن الأطباء فراشهم؟

التوى فمه:

ـ ولكن ممرضاتي لم يقمن بذلك معي.

ـ ربما لأنك لم تطلب هذا من الممرضة المناسبة!

ثم انسحبت من الغرفة دهشة من ارتجاف يدها. ماذا سيحدث يا ترى قبل أن تمضي هذه الحالة؟

هز جوناثان رأسه بتفهم حين أخبرته بما جرى من حديث بينها وبين برودي:

ـ ليس برودي برجل يسهل فهمه... حتى وهو سليم الجسم.

ـ بكل تأكيد.

لم تكن أعصاب سيليا قد هدأت على الرغم من أنها وجوناثان يجلسان في هذه الصالة الهادئة المريحة منذ ربع ساعة تقريباً... كانت قد أخبرته بما قام به برودي اليوم معها، ولكنها امتنعت عن ذكر ما حدث قبل العشاء.

ـ قالت كارول إنك وبرودي تعرفان بعضكما بعضاً قبل الآن!

ـ كان هذا منذ زمن بعيد.

ـ لم ألاحظ أن برودي يذكرك.

ـ لم نكن صديقين بكل ما للكلمة من معنى!

ـ أوه؟ ورغم ذلك هرعت إليه حالما سمعت بالحادثة؟

ـ اتصلت كارول بي...

قاطعها بنعومة:

ـ سيليا... هل أحببت برودي فيما مضى؟

ـ لا! بلى! منذ زمن بعيد.. أجل.. لماذا تسأل؟

ـ أحب أن أعرف شعورك تجاهه؟ مع أنني لا أزج أنفي في شؤون الآخرين. ولكنني أود أن أعرف إلى أي مدى يصل اهتمامك ببرودي.

تورّد وجهها:

ـ إن أية ممرضة ستهتم به فهو جرّاح لامع و...

ـ لا تهمني مشاعرك كممرضة مع أن لهذا تأثيراً كذلك. أعتقد أنك تريدين لبرودي كل خير.

ـ طبعاً!

ـ حتى ولو كان ما هو خير له وخير لي لا يتفقان؟

التوى ثغرها:

ـ لو نفّذ ما في رأسه لقضى ما تبقّى من حياته أسير كرسي قرب نافذة غرفته.

ابتسم:

ـ وهل قلتِ له هذا؟

ـ هذا ما قلته ضمن أقوال أخرى...

ـ كانت المرة الوحيدة التي شاهدته في أسوأ حالاته عندما زرته في المستشفى.

تنهدت:

ـ حين فقد أعصابه.

ـ ولكنه على الأقل كان يحارب.

ـ حسناً.. ماذا تريد أن أقدّم لمساعدته؟

مال إلى الأمام بلهفة:

ـ سام بيانشن قادم من أميركا يوم الجمعة. إنه أشهر أطباء العيون في العالم.. وهو آتٍ ليعاين برودي.

ـ هذا رائع!

ـ لا.. ليس رائعاً..

ـ لا..؟ أوه.. ثمة شخص واحد لم تخبره بقدوم بيانشن؟

ـ بالضبط.

ـ وتريد أن أقوم بالمهمة؟

ـ أوه.. أستطيع إخباره.. بل إن مطلق شخص قد يخبره. ولكن لن يستطيع أحد إقناعه برؤية بيانشن إلا...

ـ أنا.

ـ أجل.

ـ ولكنني لا أفهم. إن برودي يريد استعادة بصره بقوة، لذا لن يرفض أن يعاينه بيانشن...

تنهد جوناثان:

ـ افهميني سيليا... برودي رجل غير عادي. إنه نابغة في ميدانه.. لذا هو خائف.

ـ خائف؟ إنما ممَّ يخاف؟

ـ أوَلن تخافي أنت؟ إنه في الواقع يخبىء نفسه رافضاً رؤية أخصائي لأنه يوهم نفسه أنه سيرى يوماً، معتقداً أن عماه مؤقت...

ـ لكنه بدا لي واثقاً أنه لن يرى مجدداً!

ـ لا.. المرارة هي أفضل دفاع له حالياً.. ولو قابل بيانشن وقال له إن عماه دائم، لفقد كل أمل ورجاء بالحياة... وهذا ما لا يقوى على تحمله.

ـ لماذا تكبّده هذا العناء؟ لقد عانى كثيراً ولن أكون المسؤولة عن المزيد من المعاناة!

ـ ولو كان هناك أمل في استعادة بصره؟ هذا ليس حقل اختصاصي سيليا... كانت أعصاب البصر بعد العملية حساسة جداً فلم نستطع تشخيص حالتها بدقة. وقد حان الوقت الآن؟ فهل تحرمينه الفرصة؟ هل تحرمينه من العودة إلى مهنته؟

شهقت:

ـ تعرف أنني لن أفعل هذا. ولكنني لا أريد أن أكون السبب في مزيد من الألم.

ـ وقد يتمكن بيانشن من إجراء عملية له.

ردت بفتور:

ـ برودي يكرهني... ولا أظنه يسمع كلامي أو يتقبله.

لمس يدها بلطف:

ـ فكري في الأمر سيليا... أمامك مهلة حتى مساء الخميس وبعد هذا الوقت قد أضطر أنا بنفسي إلى إخباره.

ـ أنت تعلم أنه لم يخرج من البيت منذ أن عاد إليه... إن مجرد إقناعه بالخروج أمر مرهق.. أما إقناعه برؤية أخصائي، فأمر أكثر إرهاقاً. بل يكاد يكون مستحيلاً.

ضغط جوناثان على يدها:

ـ لا أطلب منك إلا المحاولة... والآن كفى كلاماً عن العمل الليلة.. فلنتحدث عن أشياء أخرى... فأنا موضوع مهم جداً.

أضحكها مزاحه، ثم لم يلبث أن راحا يتناقشان في موضوع العمل والمستقبل فوجدته مرحاً وجذّاباً. يحب برودي ويحترمه وهو إلى ذلك معجب به جراحاً.

نظرت إلى ساعتها، فدهشت حينما وجدت أن الوقت متأخر.

ـ يجب أن أعود حالاً... لأطمئنّ عليه قبل أن أنام..

ـ سأراه يوم الخميس إذن، وعندئذ قد نتعشى معاً.

ـ سأحب ذلك. شكراً لك.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة حين وصلت إلى المنزل. وهذا يعني أن برودي نائم منذ ساعات... ارتقت الدرج ببطء متوجهة إلى غرفة برودي التي ما زال النور مضاء فيها، ففتحت الباب بهدوء فإذا برودي مستلق في السرير والأغطية على الأرض. لم تستطع مقاومة الرغبة في الوقوف إلى جانب السرير لتتمكن من تركيز بصرها عليه دون التعرض لسخريته.

فجأة نهرت نفسها، فهي تخوض معركة فوق أرض خطرة.. تعلّمت منذ أن تدرّبت على هذه المهنة أن تهتم بالمريض، دون التورط عاطفياً معه، ولكن مع برودي تحطمت كل القوانين.

أبعدت بنعومة شعره عن جبينه، فأحبت ملمسه الناعم بين أصابعها.. غداً سيعود كل منهما إلى إظهار الكره، ولكنها الآن ستسمح لحبها بالتدفق ولنفسها بالغرق قليلاً في أحلام اليقظة... ما أروع أن تكون زوجة برودي... ليتها تستطيع الجلوس قربه لتوقظه بأفضل طريقة محببة ما بين رجل وامرأة.

ـ بإمكانك فعل هذا لو أردت.

نظرت العينان الرماديتان إليها مباشرة فابتعدت يدها عنه مذعورة وامتقع وجهها.

ـ دخلت لأرى إن كنت بحاجة إلى شيء. و.. و.. ظننتك نائماً.

التوى فمه وهو يجلس مستنداً إلى الوسائد:

ـ هل تلمسين مرضاك عادة وهم نيام؟

ـ بالطبع لا!

ـ ألم يكن جوناثان مرضياً لك؟ يا للأسف!.. دعوتي ما زالت قائمة.

رفعت سيليا يدها دون وعي إلى حنجرتها:

ـ أية دعوة؟

ـ التي قدمتها لك.. ما إن تصبحي قربي حتى يزول بيننا هذا الوضع غير المتساوي معك.

ـ لم تكن يوماً غير متساوٍ مع أيٍّ كان برودي. لا الآن.. ولا...

ـ ولا.. ماذا؟

ـ لك سمعة رائعة في الجراحة. كان جوناثان يثني ثناء بك طوال السهرة.

ـ حقاً؟

ـ أجل.. إنه...

ـ لا أعبأ بجوناثان سيليا.

ـ قال إنه سيزورك مساء الخميس.

ـ سأكون هنا.. فأين أذهب؟

ـ يا الله! رثاؤك على نفسك يثير غضبي!

ـ إذن اتركيني.

ـ تعرف أنني لا أستطيع.

ـ أوَأعرف؟

ـ أجل.. اسمع لن تجبرني على تركك. قد تحاول، وقد تهدد..

ـ وما نوع التهديد الذي قد يشكله أعمى لك؟

ـ أتريد فعلاً أن تعرف؟

ـ ما كنت لأسأل لولا جهلي.

توجهت إلى الباب حيث أطفأت النور، فعمّت الظلمة الغرفة.

ـ ماذا فعلت.. هل أطفأت النور؟

ـ أجل.. أوه.. هل لك أن تساعدني.. لقد خضت تماماً في الظلام.

ـ أضيئي النور إذن.

ـ لا أستطيع.. فلا أعرف أين أصبح الزر.

ما هي إلا لحظة حتى تعثرت ووقعت على الأرض. فصاح برودي خائفاً:

ـ سيليا. ماذا حدث؟

ـ لقد وقعت.. اللعنة.

أمسكت يده الثابتة بها لترفعها عن الأرض.. ها هما في الظلمة سواسية.

ـ سيليا! هل أنت بخير؟

ـ أجل..

ـ ماذا تحاولين إثباته؟

ـ لا شيء.. أحاول فقط أن أظهر لك إننا متساويان في العتمة.

ـ لقد أثبت أنني في الظلمة أتفوق عليك. كنت أعرف أين أنتِ بالضبط، أما أنتِ فلم يكن لديكِ فكرة.

قادها ببطء حتى أشعل نور الغرفة.

ـ هاك.. هل أنت أفضل حالاً؟

ردت بجفاء:

ـ عليَّ الإيواء إلى فراشي فقد تأخر الوقت.

ـ ما زال عرضي مفتوحاً. وبإمكانك ترك النور كما هو.. لقد مضى عليّ زمن طويل سيليا...

ليته صاغ طلبه بشكل آخر... ليته قال إنه يشتاق إليها منذ زمن طويل.. نعم إليها! ولكن اسمعوا ما قال؟ شعرت بالغضب يستحوذ عليها فصاحت به:

ـ كيف تجرؤ على هذا الكلام؟ أنا ممرضتك سيد بادجر لا شيء آخر.

ـ أنت تدخرين كل شيء للطبيب المختص.. هه؟

لم ترد على إهانته.. بل تركت الغرفة بهدوء متجاهلة نداءه الملحّ... ما أشدّ كرهها له على تحقير حبها...

كان برودي بارداً مريراً كعادته في اليوم التالي، فقد رفض ثانية مرافقتها إلى الحديقة، كما رفض مغادرة غرفته.. فصاحت به:

ـ أنت تتصرف كالأطفال.

ـ وأحس أن كارول هي الأب المسؤول وأنني الطفل الذي يُقاد من يده.. هل لديك فكرة عما يفعله هذا في نفسية رجل؟

ـ أوه.. برودي...

ـ اخرجي من هنا!

وأدار لها ظهره، فأمسكت ذراعه:

ـ برودي...

ـ ألا تفهمين.. أريد الانفراد بنفسي! اذهبي إلى الحديقة وتسلي مع بوبي.

في الواقع، وقعا أسيري رتابة متوترة مملة في الأيام التالية. فمزاج برودي بقي متفجراً بل راح غضبه يوماً فيوماً يزداد حتى باتت

تعجز عن محادثته، وكانت النتيجة أن امتنعت عن ذكر زيارة سام بيانشن.

ذلك أنها لم تجد الفرصة المؤاتية لإعلامه... بعد ظهر يوم الخميس، سيطر اليأس عليها، فهي تعلم أن جوناثان يعتمد عليها، وأن كارول تضع الآمال الكبيرة على زيارة الأخصائي وعلى الرغم من أن سيليا هيأت الفتاة لأسوأ الاحتمالات، فقد بقيت كارول على تفاؤلها... وهذا ما دفع إلى سيليا زخماً من الشجاعة لتعرض على برودي الفكرة.

بعدما أنهت قراءة الصحيفة عليه، تأخرت في الذهاب لإحضار الشاي كما اعتادت. فأحس بترددها:

ـ حسناً.. ماذا هناك؟

ـ برودي... ماذا تعرف عن سام بيانشن؟

انتفض حينما سمع اسم طبيب العيون وشحب وجهه:

ـ وماذا يجب أن أعرف؟

ـ برودي...

ـ ماذا عليّ أن أعرف سيليا؟

وقف بشراسة:

ـ جوناثان...

ـ لا.. لن أسمح بأن تتآمرا عليّ من وراء ظهري!

ـ أنت مصاب بعقدة الاضطهاد!

ـ صحيح؟ حقاً؟ ألم تقرري وجوناثان عرضي على بيانشن حتى دون استشارتي؟

ـ حسناً.. أنا..

ـ تعاملاني وكأني صرّة من المهملات. ولكن الحادثة لم تؤثر

في عقلي سيليا... ولا يحق لكما اتخاذ قرار كهذا دون استشارتي.

ـ لكن لو طلبنا منك...

ـ لقلت لا! وهذا ما أقوله الآن!

ـ ولكنه قادم من أميركا من أجلك فقط!

ـ إذن فهو يضيع وقته ورحلته سدى. فلن أراه لا الآن ولا في المستقبل!

ـ برودي...

ـ الرد هو «لا» سيليا.

ردت بغضب:

ـ إذا كنت لا تريد رؤيته من أجل نفسك فعلى الأقل من أجل كارول! إنها تضع آمالها على هذه الزيارة.

ازداد احمرار وجهه:

ـ لم يكن من حقك تصعيد آمالها قبل أن تسأليني!

ـ أنا أثق بذكائك...

ـ أخطأت حين وثقت بي... فأنا لن أقابل بيانشن أو أي شخص آخر.

ارتدّ عنها مستقيم الظهر متوتراً، ولكنها دنت منه تضع يدها على ذراعه، فلمّا انتفض من جرّاء لمستها ردّت يدها إلى جنبها.

ـ اصغي إليّ برودي. أعرف أنك خائف.. لكن..

جعلتها وحشيته عندما التفتت ترتد إلى الخلف.

ـ خائف؟ أنا لست خائفاً.. بل أحس بالسقم من بلهاء مثلك تحاول أن ترشدني إلى ما هو خير لي! ماذا تعرفين عن العمى؟ ماذا تعرفين عن مشاعري؟ لا تعرفين شيئاً..! اخرجي من هذا المنزل.. الليلة.. أسمعتني؟

ـ سمعتك.

ـ إذن ارحلي... ارحلي... الليلة. وقولي لجوناثان إنني لن أقابل بيانشن أو أي أخصائي آخر.

ـ إن سام بيانشن هو أمهر طبيب في هذا المجال كما تعلم.

عندما لم يرد برودي عليها، رأت أنْ لا خيار لديها إلا مغادرة الغرفة التي ما إن تركتها حتى استندت إلى بابها القوي بوهن... برودي كان يعني ما يقول.. إنه يريدها خارج منزله.. وهي لا تريد الرحيل إذ لا تستطيع تركه وهي تحبه هذا الحب كله.

* * *

٦ ـ لا أمل...

لم يظهر برودي ما يشير إلى التراجع عن قراره.. وعندما حان وقت جرعة الدواء مساءً، وجّهت سيليا كارول إلى ما عليها فعله. وكانت كارول قد أبلغتها أن والدها ما زال يرفض مقابلة سام بيانشن علماً أنه بات أهدأ حالاً، ولكن سيليا تعلم أن مجرد ظهورها أمامه سيعيد إليه تكدره وغضبه.

وهكذا بقيت بعيدة عنه.. فظنها غادرت المنزل. كانت تعلم أن اللوم يقع عليها لأنها سمحت لنفسها باتخاذ قرار يتعلق به، ولكنها ما فعلت ذلك إلا في سبيل مصلحته... وانظر ما كانت النتيجة. اعتبر أنها وجوناثان خدعاه وهذا ما لن يغفره.

وصل جوناثان في السابعة والنصف مساءً.. فبدا وسيماً ببدلته الأنيقة... أدخلته سيليا إلى غرفة الجلوس وهي تعي نظرة كريستبال إير الممعنة. قال جوناثان بعد تحية مهذبة:

ـ عليّ فوراً التوجه إلى غرفة برودي مع أنني أعرف ما ينتظرني هناك.

ضحكت سيليا:

ـ فليكن الله بعونك.

ـ نعم أنا فعلاً بحاجة إلى العون.

قالت كارول بعد أن صعد الطبيب:

ـ عندما كنت معه رفض الحديث...

وردّت السيدة إير ببرود:

ـ لأنه يعرف أن الأخصائي لن يقدّم له شيئاً... وكذلك الحالة بالنسبة إلى الممرضة... إنه بحاجة إلى أن يُترك وشأنه.

ردت سيليا بتحدٍّ وقد أغضبها تصرّف المرأة العجوز:

ـ لماذا نتركه؟

تشدقت كريستبال باستخفاف:

ـ ليستعيد عافيته طبعاً..

ـ وكيف يسترد عافيته دون معونة طبية؟

ـ إنه لا يحتاج إلى النوع الذي تقدمينه له!

شهقت كارول من الإهانة المتعمدة:

ـ جدتي!

أما سيليا فوقفت تقول ببرود:

ـ عذراً.. عليّ الاستعداد لموعد العشاء.. لا أريد ترك جوناثان منتظراً.

ضاقت عينا العجوز الزرقاوين:

ـ ستخرجين مع السيد هال؟

ردت بتعال:

ـ أجل.. ولا أريد التأخر عن خروجنا.

كانت السيدة إير امرأة سليطة اللسان حقاً ولولا حاجة برودي إلى عونها لتركت المنزل الليلة إلى غير رجعة.. ولكنها قد تضطر إلى الرحيل إذا أصرّ برودي على ذلك... إذ كيف لها البقاء رغماً عنه!

كانت تنتظر في غرفة الجلوس الصغيرة حين نزل جوناثان بعد

نصف ساعة.. فضاقت عيناه إعجاباً بما رآه.. وتلاشى التوتر الذي مرّ به عندما كان مع برودي، فابتسم لها... وانحنى يلثم وجهها.

في هذه اللحظة بالذات كانت كارول تتقدم نحوهما، متضرجة الوجنتين.

ـ أوه.. آسفة! لم أقصد مقاطعتكما..

التفت جوناثان إليها وذراعه ما تزال حول كتفي سيليا!

ـ لم تقاطعينا... فكلانا مرّ بالجحيم مع والدك حتى بتنا نحتاج إلى قليل من المؤاساة.

ضحكت كارول منزعجة، ورفعت حاجبيها متسائلة:

ـ وهذا ما حدث لي أيضاً... فهل أستحق قبلة؟

تمتم جوناثان متردداً ثم لم يلبث أن سحب يده عن كتفي سيليا.

ـ حسناً!

وانحنى يلثم وجهها... ارتبكت كارول ثم تمالكت نفسها وقالت بمرح تمازح جوناثان على تردده:

ـ هذه هي المرة الأولى التي أتلقى فيها قبلة وأنا في سن النضوج!

ضحك:

ـ ستحصلين على أكثر مما ترغبين إن لم تتأدبي.

فضحكت:

ـ ما عليك إلا أن تطلب..

ثم التفتت إلى سيليا...

ـ أريد الاعتذار على ما بدر من جدتي... إنها تتصرف بطريقة غريبة منذ حادثة أبي.

ـ لقد مرّت دون شك بتوتر شديد كارول... أما أنا فلا أهتم

بتعليقاتها اللاذعة.

ـ حسناً.. إذا كنت واثقة...؟

ابتسمت وهي لا تريد تكديرها:

ـ أنا واثقة.. والآن اذهبي قبل أن يبرد العشاء.

سألها جوناثان وهما في الطريق إلى المطعم:

ـ عمَّ كانت تتكلم؟

ـ عن أمر تافه.. السيدة إير تكره وجودي في المنزل.. كما تكره وجود أية ممرضة لأنها ترى أن برودي لا يحتاج إلى من يرعاه.

ـ لا أذكر أن كاثرين عانت من مصاعب معها.

ـ إذن ربما لا تحبني وحدي... مع أن ذلك لا يقلقني أبداً... كما عليك ألا تقلق أنت... ماذا جرى مع برودي؟

تنهد تنهيدة عميقة:

ـ لم أفلح كثيراً.. سنتحدث عن الموضوع أثناء وجبة العشاء.

قال لها وهما يأكلان:

ـ لقد رفض بالطبع وهذا ما كنت أتوقعه منه بل لو كنت مكانه لرفضت... فليس هناك أخبار جديدة جيدة بالنسبة له.. ولكنني أعطيته شيئاً يفكر فيه. بيانشن دبّر زيارته هذه بصعوبة فإن رفض برودي مقابلته ضاعت الفرصة من يديه لأنني لا أعرف متى يتمكن من رؤيته ثانية.

ـ وهل شرحت الأمر لبرودي؟

ـ أجل.

ـ وماذا كانت ردة فعله؟

ـ لم يهتم.. ولكن أمامه ست عشرة ساعة للتفكير. فالموعد محدد في الساعة الثانية ظهراً... وأظن أن عليك أن تصحبيه

بنفسك... أتجيدين قيادة السيارة؟

ـ أجل. ولكن لو غيّر رأيه، فأنا على استعداد لحمله إلى هناك! هل تعتقد أن الوقت كفيل بتغيير رأيه؟

ـ إذا لم يقنعه الزمن فقد فشلنا...

ردت بصوت منخفض متجهم:

ـ وأنا فشلت.. وإذا قرر برودي الذهاب غداً إلى المستشفى، فسيكون هذا من صنيعك وحدك.

ـ وكيف تجدين كارول؟ أتقوى على تحمّل هذه المسؤوليات كلها؟

ـ إنها تتحملها بنضوج ووعي.

ـ إنها تحب مداعبتي.. كتلك القبلة مثلاً.

داعبته سيليا هذه المرة بالقول:

ـ أكانت مزاحاً؟

بدا عليه ما يشبه الغضب.

ـ طبعاً.. ما كارول إلا طفلة.

تهلّل وجهها شفقة:

ـ ابنة الثامنة عشرة قادرة على الحب كابنة الخامسة والعشرين تماماً.. هذا أعرفه تمام المعرفة لأنني جربته بنفسي.

ـ لكنه لم يكن حباً يدوم.

ـ بل كان كذلك...

تأوه:

ـ لم يكن لدي فكرة عن هذا.. حسبتك تغلبت على ألم ما كان بينك وبين برودي.

ـ كان الحب من طرف واحد، وبرودي إلى هذا لم يكن يعرف

أنني أحبيته.

ـ البقاء معه في الوقت الحاضر جحيم إذن عليك.

ـ لا يهم هذا .. أما الأهم فإلغاء فكرة الابتعاد عن كارول بسبب صغر سنها.. إنها ليست طفلة.

ـ ربما.. حين ينتهي هذا كله...

ـ هذا إذا انتهى.. وهذا واقع يجب أن نواجهه.

ـ ليس الآن إنما بعد أن يقابل برودي بيانشن.

انتقلا من المطعم إلى نادي الرقص حيث رقصا إلى ما بعد منتصف الليل.. بعد انتهاء السهرة توجّه جوناثان إلى منزل آل بادجر ليوصلها.

ـ أراك في الغد.

ـ أرجو هذا.

كان الجميع نياماً، فالساعة تجاوزت الواحدة ليلاً.. ولا مجال لتأخير لحظة دخولها غرفة برودي... عندما دخلت عاودها الاضطراب ثانية. فعوضاً عن رؤيته نائماً في سريره، وجدته جالساً على أريكة أمام النافذة، في كامل ثيابه. والستائر مسدلة بحيث لم يعد أمامه إلا المخمل البني.

التفت بحدة حينما شعر بوجودها رافعاً رأسه مقطب الجبين. لم تكن تحلم أنه ما زال خارج فراشه، وكانت المجابهة آخر ما تحتاج إليه.

ـ آسفة برودي... ظننتك.. نائماً.

بدلاً من الغضب الذي توقعته، ارتعش صوته وهو يقول:

ـ وأنا ظننتك رحلت!

مدت يديها متوسلة ولكنها لم تلبث أن أسبلتهما بعدما تذكرت

عجزه عن رؤيتها. قالت له بحزن:

ـ لن أرحل برودي.. مهما كان عدد المرات التي تطلب مني فيها الرحيل.

ـ ولكن كارول قالت إنك تركتِ المنزل.

ـ صحيح.. خرجت هذا المساء.

ـ برفقة جوناثان؟ لا تنكري! أشمّ رائحة عطره عليك... سيليا.. أهو كُفؤ لك؟

شهقت:

ـ برودي!

مد يده يمسك يدها:

ـ أهو كفؤ؟ أخبريني؟

سحبت يدها منه بقوة:

ـ لن أخبرك شيئاً.. دخلت أريد الاطمئنان عليك... وبما أنك بخير فأقول عمت مساءً!

وأسرعت تخرج من الغرفة قبل أن تتفوه بشيء يزيد الأمور سوءاً.

سمعته يتجول في غرفته دون هوادة، فوضعت الوسادة على رأسها.. لأنها لا تستطيع تحمّل ما يشير إلى قلقه.. كانت تشعر بالألم لأنه يرفض رؤية بيانشن، وبالعجز لأنها لم تقدر على إقناعه!

ـ سيليا؟

تسمّرت في فراشها ولكنها لم تلبث أن أزالت الوسادة عن رأسها في عتمة الغرفة فشاهدت برودي بوضوح يقف قرب سريرها. في تلك اللحظات لم تستطع التفكير إلا في أنه غادر الغرفة أخيراً.. لقد غادر أخيراً الغرفة التي أصبحت سجناً له.

كرّر بصوت أجش: "سيليا".

ردّت وهي تجلس أمامه على الأرض:

ـ أنا هنا.. أنا هنا برودي.

أمسكت يديه بيديها، فقال ببساطة:

ـ أحتاج إليك.

ـ تحتاج..؟

ـ أحتاج أن أكون معك.. أحتاج أن تمسكي بي.. أن أكون معك وحسب...

ثم أنهى صوته بصوت متقطع: "فهل أطلب الكثير؟"

بدا لها وهو واقف تحت ظلال القمر متوتراً، معرّضاً لكافة أنواع المخاطر، فعصف الألم بقلبها ولم يعد في عقلها أو روحها أدنى رفض له. فردت بخشونة:

ـ لا.. هذا ليس بالكثير.

ـ أيمانع جوناثان؟

ـ برودي...

ولكنه سرعان ما ابتعد عنها.

ـ انسي أنني قلت هذا.. انسي أنني جئت إلى غرفتك.. إنها غلطة.. أنا فقط.. فكرت.. أنك رحلتِ حقاً.

مرّر يده على وجهه دليل تعب.. فرددت قولها مطمئنة:

ـ أنا هنا برودي.

ثم وقفت تطوق خصره بذراعيها من الخلف، وتُحرّك يديها على صدره واضعة خدها على ظهره الصلب:

ـ سأبقى هنا.. اجلس قربي...

ـ أواثقة؟

ردت دون تحفظ:

ـ جداً.

استدار إليها متنهداً تنهيدة عميقة تحتضنها ذراعاه كطوق فولاذي..

شهق قائلاً: "سأقابل بيانشن".

ثم دفن رأسه في شعرها العطر، مرتعشاً، مرتجفاً.. فصاحت بإثارة ولهفة:

ـ ستراه؟

ـ سأراه. ولكنه سيكون الأخير. إذا قال إن لا أمل.. فهذه النهاية.. موافقة؟

ـ برودي...

ـ قلت لا مزيد من الأطباء سيليا.. هل توافقين؟

عضت على شفتها مرتبكة، بيانشن هو أفضل طبيب عيون وإن قال لا أمل فهذا يعني أن لا أمل طبعاً. فهل ستستطيع قطع هذا الوعد، والأمل يلازم الحياة دائماً؟

ـ أعني ما أقول سيليا.. سأرفض بعده أي طبيب...

ـ حسن جداً.

نظرت إليه بكل الحب الذي في قلبها وكيانها، ثم اندست بين ذراعيه تريد أن تُشعره بما يعتمر في نفسها من حب وشغف.

ـ أنا متعب سيليا... متعب جداً.

ـ إذن اخلد إلى الفراش.

كان قلبها يعتصر ألماً وشوقاً إليه: "هيا اصعد..."

بعد لحظات قليلة عرفت من انتظام أنفاسه أنه غطّ في نوم عميق.

ولكنها كانت تشعر بخيبة أمل كبيرة.. فحين قال لها إنه يحتاجها ظنت... يا الله.. اعتقدت أنه يحتاجها فعلاً.. فإذا به نائم قربها وهي عاجزة عن الاقتراب منه رغم توقها الشديد إلى لمسه.

سمعته فجأة يتأوه وكأنه يحتج على وجودها معه:

ـ لا أريدك.. ألا تفهمين هذا.. دونا! لا تذهبي. حباً بالله لا تتركيني ثانية.. أحبك.. وقد أحببتك دائماً.. سيليا لا..! لماذا تتخلين عني.. يا الله.. لماذا تركتني؟

بدا لها أنه فقط حين يغفو يذكر في عقله اللاواعي أنه عرف يوماً ممرضة صغيرة تُدعى سيليا هالام... ولكنها كانت بالنسبة له لعبة يلهو بها، أما المرأة التي أحبها فعلاً فهي دونا.

ـ برودي!

كان عليها أن توقظه الآن، لأنه بدأ بالصراخ. وقد يوقظ صراخه هذا أهل البيت جميعاً.. هزته قليلاً.

ـ برودي.. لا بأس عليك.

ـ ماذا...

ارتفعت الأهداب السوداء الطويلة وهو يستيقظ، فسأل:

ـ أين أنا؟ من أنت؟ سيليا..؟

ـ أجل.. كان كابوساً جعلك تصرخ وتصيح...

مرر يده على عينيه:

ـ أنا آسف.. أما زال الوقت ليلاً؟

ـ أجل.. نمتَ ساعتين فقط.

اشتدت ذراعاه حولها:

ـ سيليا..!

كانت تعلم أن عليها أن تمتنع عنه، فهو ما زال يحب زوجته، وسيبقى يحبها رغم موتها. فحاولت الابتعاد ولكنه منعها متمتماً:

ـ أنت بنعومة الحرير... أهناك كثيرون شعروا بملمسك الحريري؟

شهقت: "أنا لم..."

ـ أكان هناك أحد؟ أنت تتجاوبين بسرعة أكاد معها لا أصدق أن الوضع جديد عليك.

ـ برودي...

ـ أريد أن أعرف.. ألا تفهمين؟

ـ لماذا تريد أن تعرف؟ أتريد معرفة قوة منافسك؟

ـ لا.. ليس الأمر هكذا.

ـ ما هو إذن؟

ثم نهضت من السرير ووقفت تنظر إلى الرجل المستلقي، وسألت بحدة:

ـ لماذا تسألني هذا السؤال وأنا لم أطلب منك شيئاً.. أبداً؟

ـ إذن ربما كان يجب أن تطلبي.

ـ ماذا تريد أن أطلب..؟ لائحة بأسماء النسوة اللواتي عاشرتهن منذ وفاة زوجتك؟

التوى فمه سخرية:

ـ لن تكون لائحة كبيرة.

وابتعدت.. فقال شاهقاً:

ـ إلى أين؟

ـ لأحضر بعض الحليب الساخن... وأكون شاكرة لو عدت فوجدتك خارج غرفتي.

ـ سيليا.

ـ أرجوك برودي.. أعرف أن ما حدث يظهرني أنني أنانية.. أنا آسفة...

صمتت قبل أن يتحول الحديث إلى إحراج. أكملت:

ـ أريد منك أن تترك غرفتي على ألا تعود إليها ثانية أبداً... أبداً.. فأنا لا أقدم خدمات كهذه لمرضاي.

وخرجت تتعثر في خطواتها لا تلوي على شيء وعندما عادت كان قد رحل. وبما أنها كانت عاجزة عن كبت مشاعرها ارتمت على السرير تجهش بالبكاء ألماً.

كان الوقت متأخراً عندما استيقظت في صباح اليوم التالي. بعد أن اغتسلت وارتدت ثيابها توجهت إلى المطبخ فوجدت الآنسة ويل التي قالت لها بحرارة:

ـ ألن تتناولي الفطور؟

ـ في العاشرة والنصف، إنه وقت الغداء.. لا سأنتظر، سأتفقد السيد بادجر أولاً...

ـ إنه ليس في غرفته.

ـ ليس في غرفته؟

ـ إنه في الحديقة يتناول فطوره فيها هذا الصباح.

لم تصدق ما تسمع، فأخيراً قام برودي بخطوة أخرى لكسر سجنه!

ـ وكيف نزل؟

ـ نزل وحده... هكذا.. وكان يتمتم لاعناً. أظنه صدم رأسه بضع مرات. كانت صدمة العمر حين دخل المطبخ يطلب الفطور!

ـ أستطيع تصور صدمتك.. سأخرج إليه حالاً...

كانت الشمس مشرقة في الخارج، برودي جالس تحت مظلة مبهرجة الألوان، وإلى جانبه كوب عصير.. كان أول من شعر بها بوبي الذي هبَّ من رقدته أمام قدمي برودي وقفز إليها يحييها بابتهاج. فالتفت برودي إليها وسأل بصوت منخفض:

ـ سيليا؟

ـ أجل.

فدعاها إلى الجلوس: "هيا شاركيني جلستي هذه؟"

أخذ بوبي يشم يدها فقال برودي مازحاً:

ـ يريد البسكويت الذي تقدمينه له عادة.

ـ وكيف عرفت؟

ـ لقد شمَّ يدي حين خرجت... سيليا.. أعتذر عمّا بدر مني ليلة البارحة من إهانات...

ـ لا بأس.. كانت غلطتي.. ما كان يجب أن...

صاح نافذ الصبر:

ـ أنت لا تفهمين.. أنا آسف لأنني حاولت التطفل على حياتك الخاصة فأفسدت عليك مزاجك.

ـ فهمت.

ـ أشك في هذا. وأنا لست في وضع يخولني تأكيد ذلك لك.. وقد لا أتمكن إطلاقاً...

ـ لا أفهم إذن.

ـ ولا أريد أن تفهمي.

ثم هبَّ واقفاً وهو يقول: "هل تقودينني إلى غرفتي الآن.. أريد الاستلقاء قليلاً، فقد أمضيت ليلة مضطربة."

وضعت يدها في ذراعه، ثم راحت توجهه بدقة لئلا يتعثر...

ـ أتريد أن أبقى معك؟

ـ لا.. سأراك في الساعة الثانية.

ـ والغداء...

ـ ليس اليوم سيليا..

احترمت رغبته في الانفراد وفهمت الاضطراب الذي يعتمل في نفسه ترقباً لما سيحدث عندما يذهب إلى المستشفى.

عندما قادت السيارة إلى المستشفى جلس إلى جانبها متوتراً يرفض الكلام... وكان قبل خروجه برفقتها قد أصرَّ أن تذهب كارول إلى الكلية بدل مرافقته، وفهمت رغبته في إبعادها. فلو ثبت أن الفحص سلبي، فلن تشهد كارول انهيار أحلام أبيها. وإذا كان إيجابياً فأمامهم وقت طويل للاحتفال بالمناسبة.

قابلهما جوناثان أمام أبواب المستشفى الرئيسية مرحباً. بعد الترحيب انطلقوا إلى المستشفى فالتقى برودي بأشخاص كانوا يسارعون إلى إلقاء التحية. أما سيليا فكانت تشعر بتصاعد توتره مع كل خطوة.

حين وصلوا إلى غرفة الانتظار قال لسيليا:

ـ انتظري هنا.

نظرت إلى جوناثان:

ـ أوه.. ولكن..

قاطعها بشراسة:

ـ قلت انتظري هنا!

ـ حسن جداً.

قال جوناثان:

ـ برودي.. أعتقد...

صاح برودي بوحشية في وجه الرجل الآخر:

ـ أتتصور أنني أريد من يشهد هذا؟ ابقَ معها هنا إذا أردت.. ولكن لا تدعها تدخل معي. لا أريدها.. أتفهم؟

ردت سيليا بحدة:

ـ أفهمك برودي.

حين لامس جوناثان كتفها بعد قليل كانت تقف متجهمة.

ـ سيليا.. برودي مع بيانشن وقد طلب مني أن أكون معك.

ـ لتلتقط القطع التي بعثرها؟

ـ بل لئلا تذهبي.

ـ أليس هذا ما يريده؟

ـ تعرفين العكس.. في هذه اللحظات يريد برودي أن يضرب في كل الاتجاهات... ولعله اختارنا في خط المواجهة.

تنهدت:

ـ نعم.. أعرف هذا تماماً. ولكنني لا أستطيع تحمل هجومه..

ـ اصبري قليلاً... هه؟

تنهدت:

ـ سأصبر ولكنني لن أسمح له بإغضابي.. فأنا أحبه، وهذا ما يجعل كل شيء مختلفاً.

بعد عشر دقائق، بدا أنها لن تضطر إلى الانتظار دقيقة أخرى فقد خرج رجل طويل أشقر من غرفة الفحص تدل خطواته الطويلة السريعة على استرخائه. فعرفت أن هذا المقبل إليها هو سام بيانشن.

سألته بلهفة:

ـ هل أنهيت الفحص؟

ارتفع حاجباه بتساؤل وقال بصوت هادىء:

- هل أنت. . . . ؟

- سيليا. . سيليا هالام. . . ممرضة السيد بادجر. .

تجهم وجهه:

- كيف أستطيع مساعدتك آنسة هالام؟

- كيف كانت نتيجة الفحص؟ أيمكن إجراء عملية له؟

لم تستطع إخفاء القلق عن صوتها.

- لن تفيد العملية الجراحية السيد بادجر أبداً. . . إنه. . .

لم تسمع سيليا ما تبقى من كلامه، فقد أحست بصوت مزعج يهدر في رأسها، أعقبه ظلام دامس. . سيبقى برودي أعمى طوال عمره!

* * *

٧ - رجل غيرك!

- هيا. . استيقظي عزيزتي. . سيليا افتحي عينيك!

كان الصوت يأمرها، فاستجابت لا إرادياً. فتحت عينيها ببطء تنظر إلى الوجه الودود البرونزي ذي الشعر الأشقر الذي زادته الشمس شحوباً:

- أوه. . يا إلهي! أين أنا؟

- في غرفة الفحص. أقنعت جوناثان بنقل مريضك إلى بيته.

- أوه. . لا! ماذا سيظن برودي بي!

- يظننا نتشاور بخصوصه.

- وما الفائدة؟ لن يرى مجدداً. . ولا شيء يقال.

هز الأخصائي الشهير رأسه، والتوى فمه:

- لو تركتني أتمّ كلامي منذ دقائق لما أُغمى عليك. . .

- ما. . ماذا تعني؟

هزّ كتفيه العريضتين بثقة:

- لو تركتني أنهي كلامي لقلت لك إن برودي بادجر لن يحتاج إلى عملية جراحية حتى يستعيد بصره. . . وإن الوقت. . . كفيل بإعادة بصره إليه. . إنما لا تسأليني متى. . . ولكنه سيرى مثلي ومثلك. . . انظري! حتى أنا أضطر إلى ارتداء نظارة طبية.

وابتسم ساخراً. فعرفت أنه يقصد بدعابته هذه بعث الفرح إلى

نفسها وقد نجح في ذلك فسألت:

- أتعني أن عماه مؤقت؟

- إنه مصاب بما نسميه: العمى الهستيري. وهو يعني..

نظر إليها بحدة وقد رأى وجهها يشحب من جديد:

- هاي.. لا تفقدي وعيك ثانية! لقد أغمي عليك حين ظننت أن عماه دائم وكدت تقعين ثانية حين قلت إنَّ عماه مؤقت. هل أنت حقاً ممرضة؟

ردت معتذرة:

- أنا أتورط عاطفياً مع مرضاي.

نظر إليها بريبة:

- هكذا إذن..

- برودي بادجر آخر من قد يصاب بعمى هستيري.

- تعرفين جيداً أن هذا مجرد وصف لحالته، فأنا أوافقك الرأي، فهو آخر من قد يصاب بهستيريا. سمعت أنه أفضل جرّاح في هذه البلاد.. ولكنني كلّي ثقة بعودته إلى حاله، فقدان البصر مؤقت عنده وأحسب السبب صدمة عاطفية سبقت الحادثة... الضربة التي تلقّاها على رأسه منحته عذراً لاذ به من الواقع. وهي طريقة لصدّ ما يزعجه.

كانت سيليا تعرف تماماً معنى هذا التشخيص، ولكنها لم تصدق أن برودي قد يتعرض إلى ما يشير إليه.

- أتعني أنه نفسياً لا يرغب في الإبصار.

- إن ردة فعله هذه غير واعية لأن عقله الباطني هو من ينوب عنه باتخاذ هذا الحل.. ثمة ما لا يريد عقله الباطني مواجهته أو ما يعجز عن مواجهته... وهو يتجنب المواجهة بهذه الطريقة. وما إن يزول

ضغط حالته النفسية.. حتى يستردّ بصره ثانية.. ولو عرفت السبب، لما تكبّدت مشقة المجيء إلى إنكلترا ولاقترحت عرضه على طبيب نفسي.

- وهذا ما يرفضه!

- تعرفين مريضك جيداً!

- من المفروض كوني ممرضة أن أعرف هذا! كيف تلقى تشخيصك؟

- ربما حزرت.. قال لي إنني معتوه.

- أوه.. لا!

ضحك الأخصائي:

- أعتبر هذا الوصف من رجل كبرودي إطراءً.

- وهو على الأرجح كذلك.

ابتسم لها:

- تعجبينني آنسة هالام... لن أغادر إنكلترا قبل الغد. فما رأيك لو نتناول العشاء معاً الليلة؟

هزت رأسها متأسفة:

- قد يحتاجني برودي.

- اسمعي. أنا أقيم في فندق الغلوستر، فإن وجدت نفسك حرّة، اتصلي بي قبل السابعة والنصف. حسناً؟ اشفقي على رجل وحيد في بلد غريب.

- أحسّ أنك لن تكون وحيداً أينما حللت.

- هذا ما أحاوله.

- والآن.. عليّ العودة.. لقد طال تشاورنا.

ثم ابتسمت مازحة.

كانت كارول مع والدها حين وصلت سيليا إلى المنزل فكان أن اغتنمت الفرصة لتدخل غرفتها بغية إنعاش نفسها. . لو علم برودي بردة فعلها أمام بيانشن، لعرف دون ريب أنها تحبه. بعد فترة غير طويلة طرقت كارول بابها، ودخلت لتجلس على حافة السرير فيما كانت سيليا ترتدي جينزاً ضيّقاً، وقميصاً أسود. . قالت كارول:

ـ لا يبدو مسروراً حتماً!

ـ إنه مسرور. ولكنه يعجز عن تصديق الحقيقة.

ـ وأنا أيضاً أكاد لا أصدق، فقد أخبرني جوناثان حين وصلت. . فتوقعت رؤية والدي مبتهجاً فإذا به. . . أوه. . أوه. . لا أدري. . غير واثق. . كما أعتقد. . ما رأيك؟

ـ لم أره بعد المعاينة. . وها أنا ذاهبة إليه الآن.

ـ حسناً. . لا تتوقعي شيئاً لأن والدي لم يقتنع بتشخيص بيانشن.

اكتشفت سيليا هذا بنفسها بعد دقائق وذلك حين سألها برودي غاضباً:

ـ أين كنت؟

ـ مع بيانشن.

ـ أوه. . صحيح؟ وهل أمضيتما ساعتين في التشاور بأمري؟

ـ في الواقع لا. . لقد تمشيت قليلاً بعد مغادرة المستشفى.

ـ أوه. . أجل. . مع بيانشن!

ـ لا. . احتجت فقط إلى بعض الهواء النقي.

ـ وهل أخبرك بتشخيصه؟

ـ أجل. .

ـ عمى هستيري؟ إن الرجل أحمق!

ـ هذا ما ذكره لي. . برودي. . ماذا حدث لذاك الرجل الذي خرجت لإجراء عملية طارئة له ليلة الحادث. . ؟

ـ هه. . محلّلة نفسية هاوية سيليا؟

ـ أرجوك برودي. . أجبني فقط. فقد قال بيانشن إنه عمى هستيري، وهذا يعني صعوبة في تصديق ضربة نفسية. . أرجوك برودي.

التوى فمه ساخراً:

ـ لقد غادر المستشفى قبل مغادرتي إيّاها. . وقد استعاد صحته تماماً. . ابحثي عن سبب آخر سيليا!

ـ لماذا لا تصدق أن بصرك سيرتد إليك ثانية. . كارول في غاية الاضطراب. . وأنت تزيد من إحباطها. . وأنا. .

ـ نعم؟ أنت تتوقين إلى ترك عملك هنا. . ولكن فكري في الناحية الإيجابية سيليا. . لقد التقيت رجلين رائعين وأنت في خدمتي. . جوناثان، ومن ثمّ بيانشن.

ما كانت في أي ظرف من الظروف لتترك إهانة كهذه تمر ولكنها صبرت قليلاً لأن صاحب الإهانة هو برودي.

ـ وأنت أيضاً.

ـ أنا؟ ليس لي حساب.

ـ حقاً. . ؟ ولكنني لا أوافقك الرأي.

ـ أيدهشك أن تعلمي أنني لا آبه البتة برأيك؟

رفضت حتى إظهار اشمئزازها من احتقاره، فردت ببرود:

ـ لا. . لا يدهشني هذا. ولكنك ستستمع إلى رأيي شئت أم أبيت. . .

سحبت نفساً عميقاً ثم أردفت تقول رأيها:

ـ سترى مجدداً برودي.. وهذا ما يسرني. لذا أرفض أن أدعك تفسد عليّ سعادتي بإهاناتك. والآن، هلاّ عذرتني.. عليّ الذهاب.

ـ ستخرجين مع بيانشن؟

ـ عفواً؟

ـ هل دعاك للخروج؟

ـ أجل.. ولكنني..

ـ هذا ما اعتقدته. بدا لي من خلال صوته شاباً. كم يبلغ من العمر سيليا؟

ـ إنه في أوائل الأربعين.

ـ أكبر مني سناً!

ـ أجل.. لكن...

ابتعد عنها:

ـ لن أؤخرك.. قد يكون بيانشن مسلياً أكثر مني..

ـ أنا واثقة أنه كما تقول.. لكن...

ـ اذهبي سيليا.. لا أريد أن ينتظر.

ردت بغضب رافضة استنتاج ما يشاء دون انتظار دفاعها:

ـ أنا لا أسمح لنفسي بالتأخر عن رجل ينتظرني ولن يكون سام الاستثناء. إنه رجل فاتن.

ـ إذن.. اذهبي إليه اللعنة عليك! اذهبي إلى الرجل القادر على وصف مفاتنك...

شهقت:

ـ ماذا قلت؟

التوى فمه:

ـ أعرف أنك تحتاجين إلى من يطري على جمالك، ويثني على

هندامك.. وأنا عاجز عن ذلك.. أليس كذلك؟

تصاعدت أنفاسها بصعوبة وهي تحاول السيطرة على أعصابها، ولكنها لم تنجح!

ـ يا الله ماذا تقول؟ أنا لا أحتاج إلى ثناء. ولكنني رفضت البارحة محاولة استغلالك لي.

رد ساخراً بحدة:

ـ أتشيرين إلى طهارتك.. لقد فقدت هذه الطهارة منذ سنوات... دون شك.

جعلها عنف كلماته تشهق:

ـ هذا صحيح.. فماذا يهم إن أضفت إلى لائحتي رجلاً آخر.. عد إلى قوقعتك وإشفاقك على ذاتك برودي... لكن لا تتوقع مني أن أشاركك فيها.

غادرت الغرفة، تصفق الباب وراءها، مرتجفة غضباً، تشعر أنها على شفير الانهيار.

كان آل هاموند بالنسبة إليها أفضل دواء لقلبها المجروح. اتصلت ببيانشن فأبلغته عدم قدرتها على قبول الدعوة، ثم قادت سيارتها إلى منزل هاموند حيث وجدت كارين التي رحبت بها أفضل ترحيب.. عندما جلست راحت تخبرها بما حدث لبرودي بادجر.. لم تكن تعي ما تكشف عنه حتى رأت نظرة العطف في عيني كارين، فأشاحت بوجهها عنها متوردة الخدين.

ـ وكيف هو شعور برودي؟

ـ إنه لا يطيق أحداً.. وهو إلى ذلك فظ، بل رهيب.

أضافت كارين بنعومة: "وأنت تحبينه كثيراً".

تنهدت سيليا:

ـ أجل.. يا الله.. يجب أن أبتعد عنه ولو فترة.

ـ أفهمك.. لقد توقعت شيئاً من هذا القبيل منذ قابلت كارول للمرة الأولى.. لن أتطفل عليك عزيزتي، فالصداقة لا تعني الفضول.. وبما أننا صديقتان فلم لا تبيتين عندنا ليلتك؟ امنحي نفسك فرصة.

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا؟ سنحضّر لك غرفتك القديمة بسرعة، وسيقوم جون صباحاً بحمل الفطور إلى فراشك ليرد جميل عنايتك به.

أعجبها هذا الاقتراح فابتسمت:

ـ سيكون ذلك رائعاً..

ـ جيد إذن.. اتصلي بكارول وبلّغيها.

الأمسية لها، والغد كذلك.. لذا فهي حرة في فعل ما تريد.

استيقظت في الصباح التالي على صوت جون وهو يحمل صينية الطعام إلى غرفتها..

ـ هيا اسرعي.. ستصحبك أنا وليندا في رحلة هذا الصباح... فلا تتأخري... كانت أمي عادة تجذب عني الغطاء إن لم أخرج من السرير سريعاً.

أمسكت سيليا بطرف الغطاء بشدة:

ـ لن تجرؤا

بقي يضحك على ردة فعلها وهو ينزل الدرج. أما هي فاستلقت على الوسادة ثانية متنهدة. إنها تعبة.. وآخر ما ترغب فيه هو القيام بنزهة.

ولكن، تبين لها في النهاية أن الرحلة عائلية.. فقادهم جون إلى خارج لندن ليمضوا اليوم في التفرج على أملاك الدوق بدفور الذائعة

الصيت، فراحوا يطوفون في الحديقة العامة التي تحيط الأملاك التي فتحها الدوق للزوار.. أثناء العودة إلى لندن قالت كارين بأسف:

ـ من العار ما يفعله مثل هؤلاء في أملاكهم التي هي أساساً بيوتهم.

ردّ زوجها جاك:

ـ لو لم يفعل بها ما فعل لما كان لديه حل إلا البيع.

ابتسمت المرأة لسيليا:

ـ لماذا الرجال عمليون دائماً.

قاطعها جاك يقول:

ـ نستطيع أن نكون رومانسيين متى شئنا ذلك.

فتلقّى نظرة صارمة من ليندا وضحك الجميع.

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة حين وصلوا إلى لندن... فلمّا دعوها إلى العشاء رفضت الدعوة لأن برودي رغم قسوته وعنفه ما زال المريض الذي عُهِد إليها رعايته.

كانت كارول وجدتها في غرفة الجلوس حين وصلت، وقد سارعت كارول تخبرها أن برودي عاد إلى عزلته رافضاً صحبة أحد. فسألتها كريستبال بلؤم:

ـ أكان يومك وليلتك ممتعين آنسة هالام؟

ـ نعم كانا رائعين.. شكراً لك، سأتفقد مريضي..

وغادرت الغرفة قبل أن تتمكن العجوز من إلقاء إهانة أخرى في وجهها.

تصلب برودي عندما شعر بها تدخل الغرفة، ولكنه بقي مشيحاً لها وجهه.

ـ لقد عدتِ إذن؟

ـ قلت لك إن ما من أحد قد يجبرني على الرحيل.
ـ أشم رائحة عطر ما بعد الحلاقة، مختلف هذه المرة.
ـ حقاً؟
ـ أجل.. ألم يكن بيانشن؟
ـ لا.
ـ رجل آخر؟
ـ صحيح.
ـ من؟
ـ مجرد رجل.
ـ مجرد...! لا أصدق هذا عنك سيليا! فما هذا تصرف يصدر عنك.
ـ ومن أين لك أن تعرف كيف أتصرف؟
ـ تبدين ناعمة وبريئة.
ـ ألم تقل إن لي "صوتاً قاسياً".
ـ صحيح.. ولكنه أحياناً ناعم ولطيف. لماذا تتجادل كثيراً سيليا؟
ـ "نحن" لا نتجادل، بل أنت من يجادل.
تنهد بغضب:
ـ من كان الرجل سيليا؟
ـ صديق قديم.
ـ ألديك عدد كبير من الأصدقاء القدامى؟
ـ القليل.. ولكن لدي الكثير من الجدد. كما تقول أنت دائماً.
ـ لماذا عدلتِ عن بيانشن؟
ـ ليست المرأة مضطرة لشرح ما يدفعها إلى تغيير رأيها...

أخبرتني كارول أنك كنت على ما يرام أثناء غيبتي.
ـ وماذا تعرف هي؟
ـ إنها مجدّة في دراستها وقد تصبح طبيبة رائعة.
ـ أهذا رأيك المهني؟
ـ بالضبط. حسناً.. تبدو في مزاج جيد فاتن.. سأتركك إذن وحدك.. فأنا بحاجة إلى النوم باكراً الليلة.
ـ متعبة؟
ـ في الواقع، أجل. لم أنم كثيراً ليلة أمس، وعليّ غداً القيام بأعباء نفسي، فلا أظن أن هناك من قد يحمل الفطور إلى غرفتي.
ـ حبيبٌ يعرف كيف يراعي شعورك.
ـ أجل.. كثيراً.. أتريد شيئاً قبل ذهابي؟
ـ ما أريده.. لا تستطيعين تأمينه لي. ولكنني سآخذ حبوباً منومة.

حين نزلت سيليا كانت كارول قد انسحبت إلى فراشها، ولم يبقَ في الغرفة إلا كريستبال إير... وهذه الليلة لم تكن مختلفة أبداً عن سابقاتها معها. إذ قالت كريستبال متشدقة بازدراء:
ـ إذن، لقد غيرت رأيك آنسة هالام..
رطبت سيليا شفتيها، تستعد لاستقبال عش الدبابير الكامن في لسان العجوز، وسألت ببطء:
ـ بشأن أي أمر؟
ـ لقد عدلت عن جعل نفسك أمراً واقعاً لا يستطيع برودي الاستغناء عنه.. بطريقة ما.
ـ الممرضة لا يمكنها إلا أن...
ـ عنيت كامرأة آنسة هالام. أترين.. أعاني أحياناً من الأرق...

انتفضت سيليا:

- نعم؟

- وحين أقلق أسعى إلى السير قليلاً. وهذا ما فعلته يوم الخميس.

ضمت سيليا يديها لتمنع ارتعاشهما.. لم تقابل قط امرأة حقوداً ككريستيال إير.! والتوى فم العجوز ازدراءً:

- وهل اعتقدت أن زيارة برودي لغرفتك قد تمضي دون أن يلاحظها أحد.

- سيدة إير...

وقفت المرأة برشاقة:

- أردت أن تعرفي فقط أن تصرفك اللامهني بات معروفاً.. وأنا أعرف بالضبط إلى أي مدى أنت مستعدة للمضي في الاعتناء بمصالح مرضاك. ولكن تذكري أمراً آنسة هالام وهو أنه كان من السهل عليه التخلص منك يوماً.. وهذا ما سيحدث مجدداً..

عرفت سيليا أنها لن تطيق المزيد، وأن الموضوع بات شائكاً... فماذا سيقول برودي لو علم أن كريستيال والدة محبوبته دونا، تعرف أنه زارها في غرفتها ليلاً؟

* * *

٨ - الحب لا يُسترد

علمت سيليا أن هناك تغييراً كبيراً قد حصل لبرودي، ولكن صعُب عليها تحديده.. فلم يعد إلى التشاجر معها، بل أصبح مهذباً بشكل بارد، وقد عاد إليه اكتئابه السابق بأقصى قوة.

سألها جوناثان بعد معاينته ظهر الاثنين:

- توقف عن المقاومة.. أليس كذلك؟

- أجل.. لقد تجادلنا مساء السبت، ومذ ذاك الوقت عاد إلى قوقعته.

- اهملي الأمر.. فهذا مزاج عابر...

- وإن لم يكن عابراً؟

- أعيدي التفكير في خططك إذن.

ابتسمت:

- إنك تصور الأمر وكأنني في حرب.

- أرى الوضع كذلك في بعض الأحيان.. إذ أشعر أن برودي على الجبهة الثانية يترصدنا. ولكنه سيستعيد بصره ولو كان هذا آخر ما أقوم به في حياتي.

وصلت كارول إلى الغرفة كالإعصار..

- وهذا ما أحب أن أسمعه. كيف تراه الآن؟

- لم يتحسن.

ـ سيتحسن.. لي ملء الثقة بكما.

رد جوناثان:

ـ شكراً لك!

ـ ألا تحب الإطراء؟

على الرغم من موهبته وبراعته، يحمرّ خجلاً أمام كارول... وهذا ما تعرفه الفتاة! فتساءلت سيليا للمرة الثانية عما إذا كان اهتمام جوناثان متبادلاً. وأجاب بخجل:

ـ إذا كان صادقاً.. أجل.

ـ أنا لا أثني على أحد خداعاً، لأنني صادقة لا أعرف الكذب.

وقف يقول لسيليا:

ـ سأزوركم بعد يومين.. إلا إذا احتجتموني قبل هذا الوقت.

وسألته كارول خائبة الأمل:

ـ هل ستذهب؟

ـ مضطر أنا يا صغيرتي. فمن يدير المستشفى بغياب والدك...

هزت رأسها ببطء:

ـ أفهم.. سأرافقك إلى الباب.

ـ لا حاجة...

فوقفت بمرح:

ـ أوه.. ولكنني أرغب في هذا.

ـ نشاط الشباب.

احمرّ وجهها، وردت بحدة:

ـ أتعلم ما هي مشكلتك؟

ـ لا.. ولكنك دون شك ستخبرينني.

ـ لأنني صادقة سأقول إنه يجب أن تخرج نفسك من جوّ

المستشفى قبل أن تصبح عجوزاً.

أمسكت سيليا ضحكتها بجهد مصغية إلى تلاسنهما الضمني الذي يدفع البهجة إلى قلب الإنسان، وردّ عليها:

ـ أتذكرين ما هددتك به يوماً.. ربما حان الأوان لاستخدامه.

ضحكت كارول:

ـ تقصد معاقبتي ضرباً!

أمسكت ذراعه ترافقه إلى الباب:

ـ ربما وجدت في العقاب ما يثير الاهتمام.

كانت سيليا ما تزال تهتز ضحكاً حين عادت كارول.

ـ أنت ستخرجينه عن طوره يوماً.

تنهدت كارول:

ـ وهذا ما أرجوه.. لقد ضقت ذرعاً به، فجميع محاولاتي للفت انتباهه باءت بالفشل.

ـ أتريدينه حقاً؟

ـ قبل أن أرد على سؤالك.. سأسألك سؤالك؟

ـ نعم.

ـ أيعجبك جوناثان؟

ـ طبعاً.. إنما ليس كما تظنين.

ـ واثقة؟

ـ جداً.. وماذا عنك؟

ـ أوه.. أنا واثقة منه منذ أن كنت في الخامسة عشرة، أو على الأقل أنا واثقة من مشاعري تجاهه. وقد قررت الزواج به.

شهقت سيليا وهي لا تصدق ما تسمع.

ـ كارول!

ـ ولكنني سأفعل.. أنا وأبي هكذا.. حين نعطي حبنا لا نسترده... ليتني أستطيع أن أدعوه إلى حفلة ما.. فهو متعصب رجعي وقد يشمئز من مطلب كهذا.

ـ لا ضير من المحاولة.. سيصل إلى المستشفى بعد دقائق.. فلماذا لا تتصلين به؟ أين ثقتك بنفسك؟

ـ أنت على حق.. لن يقول "لا".

ما هي إلا لحظات حتى عادت كارول كالعاصفة إلى الغرفة:

ـ قال أجل. قال أجل سيليا.

ـ ماذا توقعت أن يقول؟

ـ حسناً.. أجل.. ولكنني ما ظننته قائلها يوماً.

ـ أنا سعيدة من أجلك كارول.

ـ هل تسرعت؟

ـ لا أحسب أن جوناثان يراك متسرعة، فقد وافق على الذهاب إلى الحفلة... علينا الآن العودة إلى أبيك فقد قلت له إني لن أتأخر إلا دقائق معدودة، فإذا بي أتأخر نصف ساعة.

عبست كارول:

ـ وهل ترين أن علي إطلاع أبي على لقائي بجوناثان؟

فكرت سيليا لحظات:

ـ ربما ليس الآن. فلديه ما يكفيه من هموم، ولا أحسبه يريد أن يشغل باله بشأن ابنته التي اختارت أخيراً زوجاً.

ـ أنت على حق... لا أريد أن يصاب بصدمة.

ولكن برودي كان غافلاً عن اهتمام جوناثان بابنته إذ قال لسيليا بعد أسبوعين من زيارات جوناثان المتكررة:

ـ أرى أن علاقتك بجوناثان في تحسن..

كان بإمكانها تصحيح معلوماته.. ولكن بعد أيام من اللامبالاة، علمت أنها يجب أن تستغل ميله إلى التمرد. فردت متحدية:

ـ وماذا في الأمر؟

ـ لا شيء...

ـ إنه مثير للاهتمام.

رد ببرود:

ـ هذا حسن لك.. هلاّ تناولنا الشاي الآن؟

هنا تنهدت سيليا بإحباط:

ـ إذا كان هذا ما تريد.

ـ سبق أن قلت لك إن ما أريده لن تتمكني من تقديمه لي.

ـ وماذا تريد برودي؟ شفقة على عماك؟ لا.. لن أشفق عليك.. أنت تجلس في هذا الكرسي يوماً بعد يوم، دون أن تحاول معرفة الحاجز النفسي الذي يمنعك من الرؤية.. ترفض المساعدة التي أحاول تقديمها...

ـ لا أريد هذه المساعدة... فأنا أعرف ما يحول بيني وبين الإبصار...

ـ برودي...؟

ـ هل لك فقط أن تذهبي لإحضار الشاي؟

ـ ولكن لو كنت تعرف...

ـ لا يهم ما أعرف... وأنا أرفض مناقشة مستقبلي معك.

ـ أنا بشكل خاص.. أم أي شخص كان؟

ـ وهل هذا يهمك؟

ردت ببساطة:

ـ أجل.

ـ هلاّ تركتنا بعض الوقت على انفراد آنسة هالام؟

كانت صاحبة الصوت المتسلط كريستبال إير التي أضافت بعجرفة:

ـ أريد التحدث إلى صهري.. على انفراد.

نظرت سيليا بدهشة إلى المرأة التي منذ أن وقعت الحادثة، لم تحاول زيارته.. وقد جعلت هذه الزيارة المباغتة سيليا عاجزة عن النطق. أما برودي فكان أكثر ذهولاً منها، إذ قال مقطباً:

ـ كريستبال.

تجنبت العجوز النظر إليه مباشرة، وهذا ما لم يلاحظه برودي، فشعرت سيليا أن العجوز عاجزة عن تقبل وضعه الحالي كأعمى.

ردت كريستبال:

ـ أريد التحدث إليك برودي.

ردّ بسخريته المعتادة:

ـ هذا شرف لم أتوقعه.

سخريته أجفلت كريستبال التي صاحت في وجه سيليا:

ـ أتمانعين آنسة هالام؟

ـ أبداً.. كنت على وشك الخروج لإحضار الشاي، ربما تودين الانضمام إلينا؟

ـ تناولت الشاي منذ برهة.. لن يستغرق ما سأقوله وقتاً.

ارتدت سيليا على عقبيها تطلب الخروج، ولكنها سمعت برودي يقول:

ـ وكأن ما جئت من أجله ينذر بالسوء.

ردت حماته بإيجاز:

ـ أبداً.. إنه متعلق برحلتي إلى سويسرا...

أغلقت سيليا الباب وراءها بهدوء.. وهي تفكر في أن كريستبال ما تزال غير قادرة على التعاطي مع محنة برودي، وقد قررت على ما يبدو الانسحاب من خط المواجهة.

كانت ما تزال تفكر في هذا الأمر حين عادت ترتقي الدرج حاملة صينية الشاي، وقد كادت توقعها حين سمعت أصوات الغضب المتصاعدة من الداخل..

ـ الأمر فقط من حسن الاحتشام...

قاطعها بحدة:

ـ أنا رجل أعمى!

ـ كانت دونا زوجتك.

ـ ولكنها ماتت.

ـ وهذا ما أعنيه بالضبط.

ـ أكانت ستفعل الشيء نفسه لي؟

ـ لا أظن..

ـ تعلمين جيداً أنها ما كانت ستفعل، وهذا يعني أن المسألة فُضَّت.

ـ أنت هكذا دائماً.. تصرفك هذا سيؤدي إلى منع كارول من مرافقتي.

ـ لكارول حرية القرار.

تسمَّرت سيليا من جراء حدة ما تسمع، غير عابئة بتجسسها على حديث عائلي خاص. سمعت برودي يقول بصوت أقل حدة:

ـ لقد مضت ثلاث سنوات كريستبال.. لذا لا ضرورة للمثابرة على هذا "الحج".

ـ دونا ابنتي.. وإن كنت ترفض أنت أو ابنتك مرافقتي أذهب

وحدي.

ـ هذا شأنك.

ـ كان يجب أن أعرف أن هذا ما سيكون عليه ردك. لقد قلت دائماً لدونا إنه ما كان عليها الزواج بك لأنك لم تحبها قط، بل كان كل ما أردته منها المال والسلطة التي وهبتك إياهما لإبراز مستقبلك العملي.

ـ كريستبال..

ـ لا تنكر هذا برودي.. أنت تعرف أنها الحقيقة. لقد حطّمت قلب ابنتي الصغيرة ببرودتك.. ودفعتها إلى أحضان رجل آخر.

لم يصدر رد عن برودي.. ففهمت سيليا السبب.. لقد أحبها كثيراً وسامحها، وما اتهامه بتحطيم قلب ابنتها إلا سخافة... ولكن لماذا تريد كريستبال أن يرافقها برودي وكارول إلى سويسرا؟ وما علاقة دونا بهذه الرحلة؟

ـ سأسافر وحدي إذن.. ربما بعد الظهر... أجل ما عدتُ أطيق البقاء في هذا المنزل يوماً آخر. معك ومع عشيقتك...

ـ ماذا؟

ـ نعم.. إنه خير وصف لعلاقتك بالآنسة هالام!

صاح برودي:

ـ اتركي سيليا خارج موضوعنا هذا.

ـ قلت لك ما أريد.. ولكنني أطلب منك أن تعيد النظر في المثال الذي تضعه أمام كارول.

ـ وداعاً كريستبال.

ردت بسفالة:

ـ لا تنكر أن كارول أصغر من أن توافق على الخروج مع

جوناثان هال.

ظهر اهتمام عميق في صوت برودي:

ـ جوناثان؟

ـ إنهما يخرجان معاً منذ أسبوعين... فهل تظن أن هذا زواجاً مناسباً لكارول؟

ـ ألا يأتي من أجل سيليا؟

ـ لا تكن سخيفاً برودي... أعرف كل شيء عن علاقتك بالممرضة، فقد شاهدتك تغادر غرفتها في إحدى الليالي.. كيف ستعرف كارول الحب الحقيقي، وأنت تظهر علاقاتك الغرامية أمامها؟

ـ منذ متى يدور هذا الحديث؟

ذعرت سيليا حينما سمعت هذا السؤال الهامس، وقد شحب وجهها وهي ترى كارول خلفها... ماذا سمعت من الحديث يا ترى؟ هل عرفت أن برودي زار غرفة ممرضته، مرة على الأقل؟ ولكنها سمعت كارول تسأل:

ـ أنا دهشة لأن هذا الشجار لم يحدث قبل الآن، فمن عادتهما التشاحن في مثل هذا الوقت من السنة.. حذار أن يزعجك ما تسمعينه سيليا، فما أنا وأنت إلا على هامش هذه المجادلة. إن جدتي تتذمر من رفض أبي مرافقتها إلى سويسرا لزيارة قبر أمي.

ـ أمك مدفونة في سويسرا؟

ـ أجل.. وأبي مؤمن أن زيارة قبر الميت لا تعوض عما أصابه في حياته. وأنا أوافقه الرأي. أما جدتي فهي تعتبر هذا قلة احترام.

قالت سيليا بهدوء:

ـ لقد أخبرته كذلك بعلاقتك مع جوناثان.

هزت الفتاة كتفيها:

- لم يكن هذا سراً.. هل أدخل الصينية عوضاً عنك؟ فإن دخلت أستطيع التحدث إلى أبي حين تتركنا جدتي.

- شكراً لك.. أود تبديل ثيابي على أي حال.

ابتسمت كارول بتفهم... ثم رفعت كتفيها تأهباً لدخول الغرفة. أما سيليا فلم تنتظر لمعرفة النتيجة.. بل هرعت إلى غرفتها. ولكنها سمعت صوت باب غرفة برودي يُصفق بقوة وهذا يعني أن السيدة إير أنهت ما تريد قوله.

لماذا كانت دونا بادجر في سويسرا عندما ماتت؟ ولماذا ما زال برودي يحس بالمرارة بشأن زوجته؟ ألم تكن عودة المياه إلى مجاريها ناجحة بينهما؟

* * *

٩ - رحيل إلى الغد

احتاجت سيليا إلى كل ما أوتيت من قوة إرادة للذهاب إلى غرفة برودي ذلك المساء إذ تفرض عليها واجباتها كممرضة المواجهة... مع أن كارول أكدت لها أن شيئاً لن يحصل، وأنها شرحت له كل شيء.. ولكن ما أقلق سيليا هو «كل شيء» الذي شرحت له!

كان مستلقياً على سريره حين دخلت، والنظارة السوداء مكانها التفت إليها سائلاً:

- سيليا؟

- ومن سواها؟

- لماذا كذبت عليّ؟

ابتلعت ريقها بصعوبة فالهجوم مباغت:

- كذبت عليك؟ ولماذا أكذب عليك؟

- هذا ما أحاول معرفته. قالت كارول إنها هي من تقابل جوناثان، فلماذا جعلتني أظن أنك أنت الفاعلة؟

- وهل فعلت هذا؟

رد بخشونة:

- تعرفين جيداً أنك فعلت! وماذا عن بيانشن؟

- إنه طبيبك لا أكثر ولا أقل.

- وماذا عن ذاك الرجل الذي قضيت ليلة معه. ذاك الذي حمل

إليك فطورك إلى السرير؟

ـ زرت كارين وجاك هاموند، فدعواني إلى المبيت عندهما. أما الذي حمل الفطور فهو ابنهما جون.

سمعته يتمتم شيئاً.

فقالت: 'ماذا قلت؟'

ـ قلت اللعنة عليك! لماذا فعلتِ بي هذا؟ ألا يكفيني عجزي حتى تزيدي عليه تبجحك بعلاقاتك الغرامية؟

ـ لم أتبجّح قط... أنا فقط...

ـ جعلتني أشعر أنني غير قادر على أن أكون رجلاً! وبتُّ أجلس هنا في هذا الكرسي متمنياً لو أكون حبيبك!

ـ برودي...

ـ اخرجي من هنا سيليا، لا أطلب منك ذلك طلباً بل آمرك، فلن أطيق وجودك بعد الآن.

ـ سأتركك قليلاً، ولكنني سأعود وقت العشاء..

ـ أريد أن تتركي المنزل سيليا.. ما عدت بحاجة إليك...

ـ لكن...

ـ تعرفين أن هذا صحيح.. فأنا لا أتناول علاجاً أو حبوباً منومة.. لذا ما حاجتي إلى ممرضتي؟ سيكون رحيلك مفيداً للجميع خاصة لك ولي.

ـ ما رأيك بصديقة؟

ـ لن أكون أنا وأنت صديقين أبداً.

ـ هذا غير صحيح...

ـ أنا لا أريد أن أكون صديقك سيليا. وهذا ما تعرفينه منذ أن دخلتِ عليَّ في المستشفى وبدأتِ تغيظينني بصوت قاسٍ للحصول

على رد... وقد كنت وقتذاك أعرف غايتك تلك فلم تعجبني...

وها أنا الآن أطلب منك الرحيل فما عاد من المناسب بقاؤك.

ـ فهمت. ولكن يجب أن يوافق جوناثان أولاً، فهو طبيبك.

ـ وأنا كذلك طبيب أيضاً قادر على تقرير ما إذا كنت بحاجة إلى ممرضة أم لا. سألتني قبل الآن إن كنت أرفض أن أناقش وضعي معك وحدك، وأقول نعم هذا صحيح.

شهقت بصوت مرتفع وكأنه صفعها.. فأردف:

ـ هل يناسبك الرحيل غداً؟

ـ إذا أردت ذلك حقاً، أرحل غداً.

ـ نعم أريد ذلك سيليا...

وقفت أمام الباب فأردف:

ـ أنا سعيد بعلاقة كارول وجوناثان، فلا بدَّ أن يجدا السعادة معاً.

ـ أجل وأنا مسرورة بهما كذلك، فكارول شابة تعرف ما تريد.

وتحصل على ما تريد.. أوه.. ليتها تحصل على الرجل الذي تريده.. على الرجل الذي تحبه.. ولكنه يبعدها عن منزله.. وعن حياته.. ربما إلى الأبد. فهو ما عاد يريدها، وما عاد منجذباً إليها.. أوه.. ليتها لاحظت ذلك الانجذاب في بدايته واستغلت الفرصة لتكون بين ذراعيه!

كانت توضب حقيبتها حين قرعت كارول الباب.

ـ ماذا يجري هنا؟ هل تشاجرت مع أبي؟ أرجوك لاتتركي المنزل بسبب هذا الشجار.. فسينسى كل شيء غداً. أترحلين بسبب اتهامات جدتي؟ إنها راحلة غداً.

ـ لا شأن لجدتك برحيلي.

ـ ولمَ تشاجرت مع والدي؟ إن هذا مفاجىء.

ـ هذا صحيح.. ولكن عندما أصبح ممرضة لا يجدي وجودها نفعاً فالخير في رحيلي. ألا ترين أن من الأجدى لك مرافقة جدتك؟ إنها متكدرة.

ـ إنها دائماً هكذا.

ـ ماذا كانت تفعل أمك في سويسرا.. حين ماتت؟ أكنتما في عطلة؟

ـ كانت تعيش هناك.

ـ في سويسرا؟

ـ ألم يذكر لك أمر رحيلها؟ لقد ذهبت لتعيش هناك بعد انفصالهما.

ـ ولكنني اعتقدتها.. عادت إليه.

ـ كانت تعود أحياناً لقضاء العطلات. ولكن زوجها لم يكن يحب زيارة إنكلترا.. وهو رجل لم يدخل حبه إلى قلبي يوماً. كان أصغر منها بعشر سنوات وهو إلى ذلك رجل عابث.

ابتلعت سيليا ريقها وقد صدمها الخبر... فعودة برودي إلى زوجته ما باءت بالفشل فحسب بل أدّت إلى الطلاق والزواج برجل آخر.. يالله... إنها تفهم الآن ما يشعر به من عذاب!

ـ لكن أمي كانت سعيدة مع زوجها.. آه سيليا ليتك لا تتركين والدي! فأبي لا يعرف ما يفعل بنفسه بصرفك من خدمته.

ـ بل يعرف.. لقد كنت شوكة في خاصرته منذ مجيئي إلى هنا.

لقد وافقت على الذهاب في الصباح، ولكنها لن ترحل قبل أن تراه للمرة الأخيرة.

الطعام اللذيذ الذي حملته إليها كارول على صينية، لم يرق

لها.. وقد مرّ الوقت بطيئاً حتى تأكدت من نوم برودي.. فهي لا تستطيع أن تراه إلا بهذه الطريقة.

كان الضوء يغمر غرفته.. ولكنه كان نائماً، لا يدثره إلا غطاء رقيق.. ما زال منظره يخطف منها أنفاسها... ارتعشت أصابعها وهي تلامس صدره بنعومة، فتحرك ولكنه سرعان ما عاد يغطُّ في نوم عميق.. جلست على حافة السرير وقالت هامسة:

ـ لم أقصد قط إيذاءك برودي... ولم أشأ أن تشعر بأنك أقل من رجل. ولكنت شاركتك حياتك بكل سعادة لو عرفت ولو مرة أنك مهتم بي... أوه حبيبي... لم أتوقف قط عن حبك حتى عندما آلمتني. كنت أتمنى أن تكون حبيبي برودي...

وتدفقت دموعها غصباً عنها وهي تنظر إليه، غير قادرة على مقاومة توقها إلى ضمه إليها... وعادت تهمس:

ـ إذا احتجتني يوماً أو أردتني... فأنا تحت الطلب دوماً.

وقفت على مضض. ثم هرعت إلى الخارج لا تلوي على شيء. بدت غرفتها باردة، وحيدة فاندست باثسة بين أغطية السرير، تدفن وجهها في الوسادة لخنق نحيبها. فلم تكن تعرف إلى أين تذهب في الغد، ولم تكن تهتم لأنها لم تشعر ببؤس كهذا من قبل...

ـ سيليا.

تسمَّرت في مكانها عندما سمعته يناديها فالتفتت إليه فإذا هو في الباب. رمشت بعينيها لأنها ظنت أن الخيالات تتراءى لها.

ـ هل لي بالدخول؟

لا.. لا تتراءى لها الخيالات.. إنه حقاً هنا.. ونظرت إليه مذعورة... هل كان مستيقظاً طوال الوقت؟ هل سمع ما قالته عندما كانت تودعه؟

ـ استيقظت منذ لحظات ووجدت صعوبة في الإغفاء من جديد... كان عليّ أن آتي إلى هنا لأودعك. لأنني أعرف أنك لن تودعيني قبل رحيلك في الصباح.. أين أنت؟

رطّبت شفتيها، وهي لا تدري كيف ترد عليه، فكرر بنعومة:

ـ أتأذنين لي بالدخول؟ لا أريد أن تسمعنا كريستبال فتظن بنا الظنون.

تصلبت، ولكنها لم تلبث أن جلست:

ـ أرجوك ادخل... هذا إذا كنت تظن أن هناك شيئاً بيننا.

حبست أنفاسها وهي تراه يغلق الباب خلفه.

ـ لا تقلقي.. لن أقنعك بعدم الرحيل. فنحن نعرف أن لا حاجة إلى رعايتك.

ـ أجل..

ـ ولكن هناك ما أنا فعلاً بحاجة إليه.

ـ نعم؟ وما هو؟

جلس قربها على السرير، ومال إلى الأمام يمسك ذراعيها ثم يرفع يديه ببطء حتى كتفيها.. فوجهها:

ـ ليتني أستطيع رؤيتك.. أنت جميلة، أليس كذلك؟

ـ لا...

ـ بلى.. أنت جميلة. سألت كارول منذ أسابيع فقالت إنك جميلة، فشعرك شعلة نارية حين تتداخل الشمس فيه.. وبشرتك ناعمة عاجية وعيناك زمرديتان، أما ثغرك... فشهيّ.

شهقت أنفاسها متألمة:

ـ برودي...

ـ أتعلمين كم اشتقت إلى عناقك؟ كم احتجت إلى أن

تحضنيني..؟ ولكنكِ كنتِ دائماً رسمية بالتعامل معي... ممرضة بكل ما في الكلمة من معنى.. أليس فيك امرأة؟

تأوهت:

ـ تعرف تماماً ما يوجد فيّ... ألم يسبق أن زرتني من قبل فأمضيت الليل عندي.

ـ لم أبت طوال الليل بل جزءاً منه لأنك طردتني.

ـ اضطررت إلى ذلك.

ـ وهل ستطردينني الليلة أيضاً؟

ـ حماتك...

ـ اللعنة على كريستبال... هل ستطردينني؟

أعطته الرد الوحيد عندها:

ـ لا.

ـ سيليا؟

ـ قلت لا.. لن أطردك لأنني لا أقدر على إبعادك عني.. ألا تعرف هذا؟

ـ عانقيني سيليا... إن لم أشعر بك بين ذراعي حالاً جننت.

صاحت صيحة مخنوقة متحشرجة ثم رفعت ذراعيها إليه تشعر بتجاوبه السريع معها.. كان العناق عميقاً وعاصفاً، فتعلقت بكتفيه العريضتين، لتغرق في عالم أصبح مجنوناً فجأة.. فبرودي وحده هو الحقيقة فيه. وأخذ يهمس لها:

ـ ليتني أراك.. ليتني أرى جمالك المسترسل أو عينيك الناثقتين إليّ شوقاً.

ـ ليس الأمر مهماً...

ـ لكنه مهم عندي.

وضعت يديها على وجهه:

ـ أزل الحاجز الذي يحول بينك وبين الرؤية.

ـ درس آخر في علم النفس؟

ـ لا تهزأ بي برودي...

ـ أهزأ بك؟ كنت غبياً حينما جئت إلى غرفتك.. أترضين عادة مرضاك وتجعلينهم ينفسون عن ضغط أنفسهم بهذه الطريقة.

أمسكت أعصابها بجهد كبير وهي ترفض أن يفسد عليها هدوءها.

ـ لماذا أحرمهم مما يتمتع به الأطباء؟

راقبته وهو ينتفض مبتعداً.. فأردفت بصوت ناعم:

ـ أنا لا أقول إلا ما تتوقع سماعه، ولكنك تعلم أن أقوالي هذه غير صحيحة... فما من طبيب أو مريض، بل ما من أحد اقترب مني من قبل. برودي أنا أريدك أنت، أنت وحدك..

ـ سيليا...

ـ لماذا لا تفهمني. ألا تشعر بقلبي الواجف.. ألا تسمع أنفاسي المتهدجة...

ـ سيليا!

ـ لن أتوسل إليك أكثر...

ـ يا إلهي ما عدت أحتمل.. ما عدت أستطيع تحمل المزيد..

وأبعدها عنه متألماً.

ـ هل رغبت يوماً في أن يكون لك طفل سيليا؟

ـ كل امرأة تحلم بالأطفال.

ـ ستبدين جميلة في حملك، ولكنني للأسف لن أكون ذاك الرجل الذي يبعث فيك حياة جديدة.

ثم نظر إليها نظرة طويلة حتى شعرت أن بصره قد ارتدّ إليه، ولكنه وقف مسرعاً وخرج من الغرفة لا يلوي على شيء.

استيقظت في الصباح التالي على طرقة خفيفة، أعقبها دخول كارول التي نظرت إلى سيليا:

ـ كيف كانت ليلتك؟

ـ لا بأس بها.

ـ سيليا؟

ـ هل شاهدت أباك هذا الصباح؟

ضحكت:

ـ أجل.. إنه يصيح بالجميع... جوناثان معه في الوقت الحاضر.

ـ أهو مريض؟

ـ لا تسأليني عنه، إنه لا يتفوه بشيء.

ـ وماذا عن جوناثان؟

تنهدت:

ـ يمارس قواعد المهنة عليّ.

لا بد أن هناك أمراً هاماً دفع برودي إلى استدعاء جوناثان باكراً هكذا.

ـ أوالدك بخير؟

ـ إنه تعب... أما زلت تريدين الرحيل اليوم؟

ـ نعم، إلا إذا عدل والدك عن رأيه، ولا أظنه فاعلاً.

ـ سيليا؟

ـ نعم؟

ـ هل قصدك أبي البارحة؟

ابتلعت سيليا ريقها بصعوبة.. ولكنها ابتسمت:

ـ لا فائدة من الإنكار.. أليس كذلك.

ـ ولماذا تريدين الإنكار؟

ـ لا أريد الإنكار.. ولكنني أؤكد لك أن اتهامات جدتك غير صحيحة. فقد أتى والدك ليلة البارحة ليودعني ليس إلا...

ـ ولكن ألا ترين أنه بقدومه ذاك أشار إلى ما في قلبه تجاهك... أنا لا أصدق ما تقولينه عن عدم اهتمامه بك... خاصة وهو من كان يبدي اهتماماً كبيراً بك قبل ست سنوات ولا أظن مشاعره تغيرت تجاهك...

تنهدت سيليا من عناد كارول:

ـ إنه لا يذكرني حتى...

ـ لا أكاد أصدق قولك.

ـ لن يغير تصديقك أو عدمه من واقع إصراري على الرحيل.

ـ حسناً ولكنني سأتحدث إلى أبي.

أكملت سيليا ارتداء ملابسها وهي سروال أسود ضيّق وقميص أخضر واسع. وفيما كانت توضّب الحقائب انفتح الباب على غير توقع فالتفتت تتوقع رؤية برودي ولكنها دهشت من رؤية كريستبال إير التي كانت واقفة هناك وعيناها الصغيرتان تحدقان إليها بعجرفة وازدراء:

ـ إذن أنت راحلة حقاً آنسة هالام؟ ويبدو أن قرارك هذا اتخذته بعدما اقتنعت للمرة الثانية بأن لا وجود لك في حياة برودي.

ـ هو لا يحتاجني ممرضة.

ـ ولا عشيقة!

ـ سيدة إير...

ـ سئم منك هذه المرة في وقت أسرع من المرة الماضية.. أليس كذلك؟ لقد سئم دونا بالطريقة ذاتها.

ـ في المرة الأولى أم الثانية؟

ـ ماذا تقصدين بالثانية..؟ تعنين الصلح!

ضحكت كريستبال.

ـ أنت تشاركينه فراشه طوال هذه المدة وأنت لا تعرفين أنه لم يكن بينهما صلحاً.

ترنّحت سيليا فتمسكت يدها بالكرسي القابع خلفها، ترتجف بشدة:

ـ ولكنك تلك الليلة عندما اتصلتُ هاتفياً... ببرودي قلتِ لي إنهما عادا إلى بعضهما بعضاً... وإنهما يستعدان للخروج معاً.

ـ لا أعتقد أن ما سأقوله الآن سيضرّ أحداً.. ولا يهمني حتى وإن أخبرتِ برودي بما ادّعيته تلك الليلة. فقد تأخرت على توضيح الأمور ست سنوات... لقد ذكرت تلك الليلة ما كنت تتوقعين سماعه... أتذكرين أنك رفضت أن تحادثيه حينما عرضت عليك استدعاءه للرد على مكالمتك.

ـ ولكنني رأيت دونا معه.

ـ ممكن.. لأن كارول أصيبت بحادث أثناء عودتها من المدرسة. فكان أن رجعت دونا من سويسرا لتكون معها.

ـ لا لتكون... مع برودي؟

ضحكت ضحكة تخلو من كل إحساس:

ـ لا.. علمتُ منذ عرّفني إليك إن علاقته بك جادة... ولكنني أرفض أن تحلّ نكرة مثلك مكان ابنتي! لا أستطيع السماح بهذا!

ـ إذن.. لم تخبري برودي باتصالي؟

ـ أوه.. أخبرته ولكنني قلت له أيضاً ما توقّع سماعه. قلت له إنك أدركتِ أنه كبير السن على فتاة مثلك، وإنك لا تستطيعين قبول واقعه الذي تشاركه فيه طفلة وزوجة، كما قلت له إنك لا تملكين الشجاعة على قول هذا وإنك لا تريدين رؤيته ثانية. حين رجعت من المستشفى مع كارول شعرت بكابوس يطبق عليّ، ولكن مخاوفي لم تكن في محلها.

ـ إنه لا يذكرني حتى.

ـ أنا لم أنسك قط.

تناهى إليها صوته من الباب المفتوح... دخل الغرفة ووقف قربها والنظارة السوداء تخفي أساريره.

ـ صدقت في السنوات الست أنك لم تهتمي بي.. وأنك...

التفت إلى حماته يرتجف غضباً:

ـ أظنك بحاجة إلى عطلة طويلة كريستبال.. عطلة تمضينها بعيداً عني وعن سيليا..

ـ برودي..

لم تُجفله نبرتها المصدومة فأردف ببرود:

ـ أرى أن من واجبك الرحيل.

ـ لكن..

ـ أعتقد أن كارول وجوناثان سيسرهما استدعاء سيارة أجرة لك.

ـ ولكن إلى أين؟

ـ ليتك تذهبين إلى الجحيم بسبب ما جعلتني أقاسي منه ست سنوات!

راقبت سيليا العجوز تخرج كالعاصفة من الغرفة تصفق الباب وراءها.. ثم لم تلبث أن أدارت عينيها الخضراوين إلى برودي

لتقول متأوهة:

ـ كنت تعرفني طوال الوقت؟

ـ أجل. ولكنني كنت أعمى.. عادت كارول من حفلة لتقول لي إنها قابلتك وإنها وجدتك جميلة كما كنت دائماً... ذلك المساء استدعيت لتلبية حالة طارئة، وكان تفكيري منصباً عليك. كنت أفكر فيك حين وقعت الحادثة..

شهقت:

ـ أكان الاصطدام بسببي؟

ـ لا.. بل كانت غلطتي. كنت خائفاً أن تصدميني ثانية بعد هذه السنوات، وكنت مقتنعاً فيما بعد أن عماي وسيلة لتجنب الواقع. وحين استعدت وعيي في المستشفى فوجدتك هناك. خِلتُ نفسي أهذي، ولكن مع مرور الأيام والأسابيع عرفت أنني أحببتك أنت وحدك دون دونا... وأنني ربما أجبرتك على الظهور في مخيلتي فقط. ولم أذكر هذا حتى لكارول لئلا تظنني قد فقدت عقلي.

لم تصدق أنه كان يناديها هي ألا ترحل لا دونا.. لقد فهمت همهماته خطأ...

ـ ثم عدتِ ثانية تعذبينني، تثيرين غضبي... تعطينني سبباً أعيش من أجله وأنا الذي كنت في ذاك الوقت أرفض الحياة. لماذا جئت.. يا إلهي! ما أعظم ما كان عليه عذابي عندما جئت إلي على أنك ممرضتي فلمست وجهك وأنا أشعر ببشرتك ناعمة كالحرير. هل كنت ستدعينني أُتمّ ما أريد يومذاك. يجب أن نبوح بالحقيقة الآن، فالوقت ليس متأخراً كما ادّعت كريستبال.. ولن يتأخر يوماً. قلت إنني لم أنسك.. فهل نسيتني يوماً؟

ـ حاولت، وكنت أنجح أحياناً في إبعادك أياماً ولكنني لم أتمكن

من نسيانك كلياً، فقد كنت أول رجل أحببته..

- الأول؟

- والأخير... كدتُ أبوح لك بمشاعري ولكنني رأيتك تخرج من المستشفى مع دونا، وكنت قبل ذلك قد اتصلت بك فإذا بالسيدة إير تقول لي إنك على وشك أن تخرج الليلة بصحبتها لأن المياه عادت إلى مجاريها بينكما.

- أخبرتني كريستبال بمكالمتك... وكنت مستعداً لارتكاب جريمة بسبب ما أخبرتني به! ثم قررت أن أمهلك وقتاً للتفكير فاصطحبت كارول للقيام برحلة نقاهة طويلة، وحين عدنا وجدتك قد انتقلتِ إلى مستشفى أخرى.. وكان هذا خير دليل على قرارك.

- ولكن الأمر لم يكن كما تقول.. فقد وجدتني عاجزة عن العمل معك في مستشفى واحدة بعد عودتك إلى زوجتك.

تنهد:

- لماذا وافقت أن تكوني ممرضتي؟ أتعذبينني؟ أم لتنتقمي مني؟

- لا أنا من كنت أتعذب. ولكنك كنت تحتاجني، ولا تتجاوب إلا معي. أما كنت تعلم أنني أقوم بأي شيء في سبيل مساعدتك؟

- أي شيء؟

- نعم أي شيء.

- إذن كنت تقصدين ما قلته ليلة أمس؟

- ماذا قلت؟

- إنك لم تتوقفي عن حبي قط.

اتسعت عيناها دهشة:

- أكنت مستيقظاً؟

- طوال الوقت.. وكيف لي أن أنام؟ حين دخلت إلى الغرفة

فلمستِ وجهي وصدري ورحتِ تبوحين بما في قلبك، علمت أنني لن أدعكِ ترحلين.

- إذن لقد عرفت أنها الحقيقة. وأنني كنت صادقة عندما قلت إنني لم أردْ رجلاً آخر سواك من قبل.

- وأنا لم أرد امرأة أخرى مُذ رأيتك.. بل لم يكن في حياتي امرأة أخرى طوال هذه السنوات.

دارت حول نفسها بحدة فرأته مبتسماً.

- برودي؟

فتقدم منها بخطوات واثقة.

- كنت أعذّب نفسي وأنا أتخيلك مع رجل آخر..

ثم توقف أمامها حتى كاد يلتصق بها فاندفع الدفء منه واجتاح مشاعرها:

- ثم أخبرتني كارول أن ليس لديك صديق... أو زوج أو أولاد، وأعتقد أنها سألت جون عن هذه المعلومات.. فتصاعد الأمل عندئذ في نفسي ولكن حين أدركت أنني أعمى لم أجرؤ على الاعتراف بأنني تذكرتك. ولكنك كنت ممن يقوم بالتضحيات.. وعرفت أنه حين تعلمين مدى حاجتي إليك ستتخلين عن الدنيا... أوه... ما أشد أسفي على ما سببته لك من ألم بقسوتي عليك سيليا.

كانت قد سامحته على الآلام التي أنزلها بها.

- أخبرني برودي.. ما كان شعورك نحوي.. منذ ست سنوات؟

- ألم أبح به منذ هنيهة؟

- لا ليس بالكامل.

- أولاً يجب أن أشرح لكِ شيئاً عن زواجي.. كنت أريد زوجة تعزز مركزي الذي تبوأته... وكانت هي تتمتع بمزايا تخولها أن تكون زوجة رجل مشهور ولكن لسوء الحظ لم يقل لها أحد إنني سأمضي سنوات قبل بلوغ القمة.. ولم أدرك يومذاك صعوبة أن يكون لشاب زوجة أبوها مستعد لشراء أي شيء تطلبه.. وحين ولدت كارول كنا منفصلين.. ولكنني أحببت ابنتي كثيراً، وصمّمت على المحافظة على العائلة من أجلها حتى جاء هاري.

- أخبرتني كارول عن زوج أمها.

- بعد ذلك أدركت أن زواجي لم يكن زواجاً بقدر ما كان صفقة تجارية، وقد أدركت ذلك في اليوم الذي توجهت إلى العنبر لأزور مريضة، فاصطدمت بفتاة، شعرت أنني أكاد أغرق في عينيها البريئتين، وأنني أرغب في أن تحتويها ذراعي بقوة... يومذاك نظرت في عينيك.. كما أنظر الآن.. فوقعت في حبك.

- برودي؟ أقلت.. إنك.. تنظر إليّ؟

- أيهمك أن أبقى أعمى؟

- لا يهمني أبداً لو كنت أعمى، أو كان لك ست زوجات وعشرون ولداً.. لأنني أحبك.. وسأظل أحبك...

- ليلة أمس، بعدما بحت لي ما بحت وأنت تظنينني نائماً، دخلت عليك في الغرفة. في تلك اللحظة قفز شيء في داخلي، أزال الضغط النفسي عني، فنظرت إليك.. فجأة رأيتك.. جميلة كما عهدتك.

- لماذا لم تقل لي؟

- كنت أفكر في أشياء أخرى.. مع أن لا شيء كان أهم عندي منك عندئذ، ولكنني شعرت بحاجتي إلى الانفراد بنفسي لأتأكد إنْ كان البصر قد عاد إليّ مؤقتاً أم دائماً، فخرجت من غرفتك لأتحقق من حالتي لأنني ما كنت لأستطيع إجبارك على الزواج بأعمى.

- لن تجبرني على الزواج، بل كنت ستسعدني به.

- حبيبتي.. هل تتزوجينني؟

- يجب أن أكون غاضبة منك، فكيف تهينني ظاناً أن حبي شفقة عليك؟

- لأنه لم يكن باستطاعتي تقديم أقلّ ما تستحقينه.

- ومن كان يهتم؟

- أنا من كنت أهتم.

- وهل كنت ستتركني أرحل لو بقيت أعمى؟

- لا أدري.. أترين، بقيت حتى سمعت أكاذيب كريستبال. اعتقدت أنك تخليت عني منذ ست سنوات. وبعد معرفتي الحقيقة، لم أعد واثقاً من ردة فعلي.

لفّت ذراعيها حوله، وأغرقت وجهها في صدره.

- إنك ترى من جديد... ولن تلبث أن تعود إليك عافيتك...

- وهل ستتزوجينني؟

- سأفكر في الأمر.

- ألم تكفك ست سنوات؟

اشتدت ذراعاها حوله.

ـ أظنني أحببتك منذ وقعت صدفة بين ذراعيك. أجل.. سأتزوجك.

وكان لها ولبرودي السعادة التي كانت للزوجين العجوزين دفيدسون... وقد عرف كل منهما هذا وقدّسه.

* * *

فراشة المحبة

www.liilas.com